
منحة الخلان
في موضوعات سورة لقمان



الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم



تأليف

أ.د. محمد بن عبد العزيز العواجي

رقم الإيداع: ٢٠٢٣/٢٣٤
ردمك: ٩٧٨٩٩٢٧١٦٣٠٤٣

طبعت بمطابع



سلسلة
التفسير الموضوعي الميسر
٣

منحة الخلان
في موضوعات سورة لقمان

تأليف
أ.د. محمد بن عبد العزيز العواجي

يتضمن المجموع البحوث التالية:

* أقسام الناس في التأثر بآيات الله المتلوة والمشاهدة

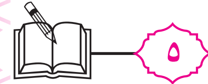
دراسة موضوعية في آيات سورة لقمان

* الحكمة في وصايا لقمان

دراسة موضوعية في آيات سورة لقمان

* الاستدلال بالآيات الكونية على وجوب تحقيق العبودية

دراسة موضوعية في آيات سورة لقمان



بسم الله الرحمن الرحيم




المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الغر المحجلين، نبينا محمد، نبي الأمة بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الله به الغمة، تركنا على بيضاء نقية، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات ربي وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه واقتفى أثره إلى يوم الدين وبعد:

فإن في القرآن الكريم كنوزًا ضخمة من الإشارات واللفتات واللطائف والإيحاءات، والمعاني والحقائق والدلالات، والقرآن الكريم كتاب الله تعالى؛ فهو أنفس ما توجه له النظرات، وتنفق فيه الأوقات، وتعد فيه البحوث والدراسات.

وإن تدبر القرآن الكريم والانتفاع بفوائده الدنيوية والأخروية، نعمة غامرة من الله المنعم الكريم، لا يعرفإلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

وإن تلاوة القرآن عباده، وحفظه عبادة، وتدبره عبادة، وتدارسه عبادة، والكلام عنه عبادة، وتقديم حقائقه ودلالاته عبادة، ودعوة الناس إليه وإلى العمل به عبادة، والحياة في ظلاله عبادة، والعمل به عبادة.

من هنا جاءت دراسة هذه السورة الكريمة، والبحث في مضامينها التي تتميز بها عن غيرها، فهي توضح المنهج التربوي الذي يجب على كل مربٍ أن يتخذه سبيلًا في سيره في المجال التربوي.

ولست أقصد بالتربويين هنا من تكون هذه مهنتهم فحسب، بل كل مسلمٍ آمن بالله وأراد الاستقامة الكاملة على منهج الله في نفسه، وبين أولاده وزوجته، ومع كل الناس.

فأقصد بالبحث وأوجهه لكل من كان القرآن منهجه، والرسول قدوته في جميع تصرفاته، لأن هذه السورة تعبر عن المنهج الذي يريد الله تعالى أن يكون واقعًا في حياة الناس يعملون به ويعلمونه غيرهم.

فإن في القرآن الكريم كنوزًا ضخمة من الإشارات واللفتات واللطائف والإيحاءات، والمعاني والحقائق والدلالات، والقرآن الكريم كتاب الله تعالى هو أنفس ما توجه له النظرات، وتنفق فيه الأوقات، وتعد فيه البحوث والدراسات.

وتدبر القرآن الكريم والانتفاع بفوائده الدنيوية والأخروية، نعمة غامرة من الله المنعم الكريم، لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

فتلاوة القرآن عباده، وحفظه عبادة، وتدبره عبادة، وتدارسه عبادة، والكلام عنه عبادة، وتقديم حقائقه ودلالاته عبادة، ودعوة الناس إليه وإلى العمل به عبادة، والحياة في ظلاله عبادة، والعمل به عبادة.

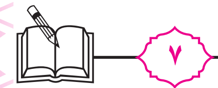
من هنا جاءت هذه الدراسة وهذا البحث في سورة من سور القرآن التي تتميز عن غيرها بأنها تضع المنهج التربوي الذي يجب على كل مربي أن يتخذه سبيلًا في سيره في المجال التربوي.

ولست أعني بالتربويين هنا من تكون هذه مهنتهم، ولكن أعني كل مسلم آمن بالله وأراد الاستقامة الكاملة على منهج الله في نفسه وبين أولاده وزوجته، ومع كل الناس.

أعني به كل من كان القرآن منهجه، والرسول ﷺ قدوته في جميع تصرفاته، لأن هذه السورة تعبر عن المنهج الذي أمر الله تعالى أن يكون واقعًا في حياة الناس، يعملون به ويعلِّمونه غيرهم.

منهجية البحث:

سأتناول في هذا البحث الجوانب الإيمانية والتربوية، لأن السورة مليئة بأسس



وقواعد التربية التي نحتاجها.

وذلك وفق منهجية علمية تتمثل في النقاط التالية:

- الاعتماد على كتب التفسير بالمأثور، والاستفادة من جميع أنواع التفسير الأخرى.
- الحرص على إيراد الروايات الصحيحة في تفسير الآيات وفي أسباب النزول.
- الحرص على بيان المعنى الإجمالي للآية مع استنباط العبر والعظات منها.
- التزام الاستشهاد في السنة بالأحاديث الصحيحة فقط، ولم أستشهد بحديث اتفق على ضعفه.
- اعتماد تصحيح وتضعيف علماء الحديث، وما لم أصل إلى الحكم عليها-وهو قليل جدًا - اكتفي بذكر مصدرها فقط.
- محاولة عرض المعنى الإجمالي للآيات مع التركيز في المعنى على الفوائد العمليَّة، وعدم إيراد معلومة لا ينبني عليها فائدة عمليَّة.
- الرجوع إلى المراجع التي تخدم الموضوع الذي تشير إليه الآيات.
- التقديم بمقدمة عن الوحدة الموضوعية للسورة، لبيان ملامح السورة الرئيسة. وفيه الجمع بين الموضوعات التي تناولتها السورة بأسلوب مختصر وجامع قدر الجهد.

خطة البحث:

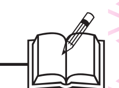
ينقسم البحث في موضوعات سورة لقمان إلى تمهيدٍ وثلاثة أبوابٍ وخاتمة وفهارس، وهي كالتالي:

تمهيد: يتضمن بيان الوحدة الموضوعية في السورة.

الباب الأول: التأثر بآيات الله المتلوة والمشاهدة وأقسام الناس فيه؛ ويشمل فصلين:

الفصل الأول: التأثر بآيات الله المتلوة والمشاهدة؛ ويشمل مبحثين:

المبحث الأول: أسباب الانتفاع بالقرآن.



المبحث الثاني: أسباب الانتفاع بالآيات الأخرى.

الفصل الثاني: أقسام الناس في التأثر بآيات الله المتلوة والمشاهدة؛ ويشمل مبحثين:

المبحث الأول: صفات المحسنين المتأثرين بما يسمعون ويشاهدون من آيات الله:

أولًا: إقامة الصلاة.

ثانيًا: إيتاء الزكاة.

ثالثًا: اليقين بالآخرة.

رابعًا: الاستسلام لله ﷻ.

خامسًا: الصبر والشكر.

المبحث الثاني: صفات المستكبرين عن آيات الله المتلوة والمشاهدة:

أولًا: استبدال آيات الله بلهو الحديث.

ثانيًا: إضلال الناس عن الحق.

ثالثًا: عدم العلم.

رابعًا: اتخاذ آيات الله هزوًا.

خامسًا: الاستكبار عن سماع آيات الله.

سادسًا: الجدال في الله بغير علم ولا هدي ولا كتاب رباني.

سابعًا: الكفر والغدر.

الباب الثاني: الحكمة في وصايا لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويشمل تمهيدٍ وعشرة فصولٍ:

تمهيد في: لقمان الحكيم ومعالم حكمته.

الفصل الأول: الوصية الأولى: شكر الله ﷻ:

المبحث الأول: فضل الشكر وأهميته.

المبحث الثاني: حقيقة الشكر.

المبحث الثالث: ثمار الشكر.

الفصل الثاني: الوصية الثانية: النهي عن الشرك.

الفصل الثاني: الإيمان بالغيب وأحكامه:

المبحث الأول: المراد بالغيب وأقسامه:

أولًا: معنى الإيمان بالغيب.

ثانيا: أقسام الغيب وأنواعه.

المبحث الثاني: أهمية الإيمان الغيب.

المبحث الثالث: الوعظ والتذكير بالآخرة.

المبحث الرابع: مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث.

الفهارس: وتضمن ثبت المراجع، وقائمة الموضوعات.

والله سبحانه أسأل أن يكون هذا العمل لوجهه الكريم، كما أسأله سبحانه أن يجبر تقصيري وزللي، وأن يبارك في صوابه وأن ينفعني به وجميع من قرأه.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

الباحث

د. محمد بن عبدالعزيز العواجي

طيبة الطيبة





تمهيد

الوحدة الموضوعية للسورة

سورة لقمان من السور التي لها تأثيرٌ في نفس كل مؤمن ينظر بعين بصيرته إلى توجيهاتها علمًا وعملًا، وفي نفس كل مربي ومعلم وداعية ينظر إليها كمنهاج يسير عليه في دعوة غيره وتربية مجتمعه والرقي به تربية إسلامية كاملة.

ولها تأثيرٌ أيضًا في قلب كل من انحرف عن فطرته التي فطره الله عليها تذكيرًا له بتلك الفطرة وهي فطرة العبودية لله تعالى.

فهذه السورة مكية(١) تضمنت مقارنة بين صنفين من الناس صنف تأثر بآيات الله المتلوة والمشاهدة فانتفع بذلك، وصنف آخر لم يتأثر بتلك الآيات واستبدل بها غيرها من الباطل فحصل له العذاب.

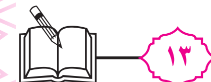
وهذه السورة جاءت تعالج أمرًا مهمًّا عالجته أخواتها من السور المكية، إنها قضية العقيدة في الله تعالى وعبوديته ﷻ. إنها تعالج هذه العقيدة بمخاطبة الفطرة الإنسانية التي خلقت عليها البشرية وهي أنه لا بد لهذا الكون من إله مالك؛ وخالق له؛ مبدع فيه، وما شكر هذا الإله إلا عبادته سبحانه.

وهذه السورة جاءت تقوّم ما كان في المجتمع من انحراف في الأخلاق وتكبر وتجبر على الناس، وذلك بأسلوب متميز من خلال عرض وصايا أوصى بها أحد الصالحين ابنه وهو يؤدبه.

فأوصاه بأعظم أدب وهو التأدب مع الله تعالى وذلك بعبادته سبحانه وعدم الإشراك

---

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٥٧٩، فضائل القرآن لابن الضريس ص٧٤-٧٤، الدر المنثور ١١/ ٦١٤، والإتقان في علوم القرآن ١/ ٢٦. عن ابن عباس أنها نزلت في مكة وفي رواية له أنها مكية غير ثلاث آيات والراجح أنها كلها مكية، والله أعلم.



به: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

ثم عقب ذلك بالأدب مع الخلق لأنه من تمام الأدب مع الخالق والقيام بحق المخلوقين، وأعظم ذلك الأدب مع الوالدين اللذين كانا سبب في وجوده، وذلك بطاعتهما ومصاحبتهما في هذه الدنيا بالمعروف وإن كانا غير مسلمين، ولكن الطاعة تكون في غير معصية الله لأن الإتباع لله ورسوله وللمؤمنين الذين اتبعوا منهج الله تعالى أولًا وأخيرًا قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وفي ظل هاتين الوصيتين تأتي الوصية بالرقابة لله وحده وخوفه وخشيته وهي مرتبة الإحسان «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[1] وأن تكون هذه الرقابة مغروسة في القلب البشري لتحقيق الإخلاص وعدم إرادة غير وجهه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٩].

قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾.

ثم يأتي التوجيه أيضًا بالصلاة عبودية لله وتقويما للسلوك: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وإذا قوم الإنسان سلوكه، فعليه أن يسعى لتقويم سلوك غيره؛ وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [العصر: ٢]، وأن يصبر على عبادة الله تعالى وعلى الدعوة إلى الله تعالى وعلى كل ما يلاقيه في سبيل تقويم سلوكه وسلوك الآخرين ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]. وقال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾.

ثم نهاه عن الكبر والمشي بين الناس بالكبر والاختيال وما في ذلك من عدم رضى

---

(١) كما في حديث سؤال جبريل عليه السلام الذي يرويه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب بيان الإسلام والإيمان والإحسان (٨).

الله تعالى وبغضه سبحانه لتلك القبائح قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

ثم أمره بعكس الكبر والفحش وهو حسن الأخلاق والتلطف مع الخلق فقال تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

فأوصاه بأعظم أدب وهو التأدب مع الله تعالى ومع نفسه ومع الخلق قريبهم وبعيدهم.

ثم بعد ذلك يُذَكِّر الله تعالى عباده بالآخرة، وأن كل إنسان مجازى على ما عمل، ولا ينفعه أقرب قريب وأن يبتعد الإنسان وينتبه للمغريات الموجودة في هذه الحياة الدنيا.

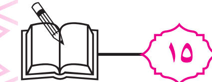
إن هذه السورة تعالج أمر العقيدة بمخاطبة الفطرة الإنسانية التي فطرت عليها البشرية وهي أنه لا بد لهذا الكون من إله مالك؛ وخالق له؛ مبدع فيه، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾.

فهذا الكون الكبير: سماؤه وأرضه وشمسه وقمره وليله ونهاره وأجوائه وبحاره وأمواجه وأمطاره، ونباته وأشجاره تشهد على بديع صنعه وربوبيته وإتقانه.

وما دام أنه لا بد لهذا الكون من إله، فلا بد أن يتوجه إليه وحده بالشكر، وما شكر هذا الإله إلا عبادته سبحانه.

كيف لا يؤمنون به وهم يعترفون بأنه سبحانه هو الخالق لهذا الكون كله ومبدعه!! قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

كيف لا يؤمنون به وهم يدعونه في الضراء!! فإذا كشف الضراء كفروا به قال تعالى:



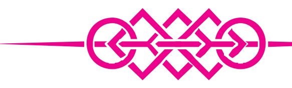
﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (٣٢) ﴾.

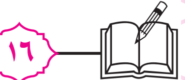
ثم بعد ذلك يُذَكِّر الله تعالى عباده بالآخرة، وأن كل إنسان مجازى على ما عمل، ولا ينفعه أقرب قريب وأن يبتعد الإنسان وينتبه للمغريات الموجودة في هذه الحياة الدنيا فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٣٣) ﴾.

وفي ختام السورة يأتي هذا الخطاب الإلهي قويا على النفس، يصور علم الله الشامل، وقصور الإنسان المحجوب عن الغيوب، ويقرر القضية التي تعالجها السورة بكل أجزائها، وهي قضية العقيدة، فقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤) ﴾.

بهذا العرض يتبين لنا أن هذه السورة هي سورة العقيدة وسورة الأخلاق، الأساسان اللذان قامت عليهما الدعوة في مكة، فالنبي ﷺ بوحي من الله تعالى أراد أن يغرس العقيدة الإسلامية في القلوب، مع ما يهذب تلك العقيدة، ويجعل هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس في عقيدتها وفي أخلاقها، وفي جميع شؤون حياتها، فلا فرق بين العقيدة والأخلاق، والعبادة والأخلاق، بل هي أمور متلازمة، وإنما الإسلام دين كامل لا يؤخذ بعضه ويترك البعض الآخر.

وبعد هذا العرض يأتي التفصيل للفوائد والدرر من هذه السورة.





الباب الأول

التأثر بآيات الله المتلوة والمشاهدة وأقسام الناس فيه

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾.

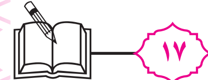
يخبر الله تعالى في بداية هذه السورة عن القرآن أن آياته ذات حكمة بالغة، وأن هذه الآيات هدى ورحمة للذين أحسنوا العمل بما أنزل الله في القرآن وبما أمرهم به رسوله محمد ﷺ.

ثم يخبر الله ﷻ عن صفات المحسنين، وأنهم هم الذين يقيمون الصلاة، ويؤدون الزكاة، ويؤمنون بالبعث والجزاء، ويوقنون به إيمانًا يقتضي الاعتقاد والعمل والقول، وهؤلاء المحسنون أيضًا على نور من ربهم، وهم الفائزون في الآخرة لاتصافهم بهذه الصفات.

ثم يخبر الله تعالى عن فئة غير المحسنين، وهم الذين يشترون كل ما يلهي عن طاعة الله ويصد عن مرضاته ليضلوا بذلك الناس عن طريق الهدى إلى طريق الهوى، ويتخذوا آيات الله سخرية، فجزاء أولئك أن لهم عذاب يوم القيامة يخزيهم ويهينهم.

ومن صفات تلك الفئة: أنهم إذا تتلى عليهم آيات القرآن أعرضوا عن طاعة الله، وتكبروا عليها، كأن في آذانهم صمم منعهم من أن يسمعوا؛ فمن هذه حاله فبشرهم بعذاب أليم.

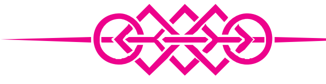
أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم نعيم مقيم في الجنات، وحياة أبدية، وهذا



وعد من الله حقًا وهو الله سبحانه الذي عز فحكم للمؤمنين بالجنة، وعلى الظالمين بالنار عدلا منه سبحانه.

فيوضح الله سبحانه في هذه الآيات صنفان من الناس سمعوا آيات الله، فكان منهم المحسن وكان منهم المسيء، وذلك بعد أن وصف الله القرآن بأنه هدى ورحمة، وذلك لأن القرآن يهدي به الله إلى الحق، ورحمة لأنه إذا هداهم إلى الحق فقد أنقذهم به من الهلاك ومن النار، وهو أيضا رحمة في الدنيا حيث أنه يعرض للناس المنهج الصحيح الذي تصلح به حياتهم على الأرض وتستقيم.

ومن هنا يُعْلَم أن الناس في التأثر بآيات الله المتلوة والمشاهدة صنفان: متأثر ومعرض.



الفصل الأول

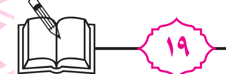
التأثر بآيات الله

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه: ١١٣]، ووصف كتابه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: ٤٤]، بل وبيّن عِظم أثره: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: ٣١]، وغيرها من الآيات العظيمة التي تصف تأثير القرآن، وتوجب التأثر به.

الحمد لله بلغ تأثير القرآن العظيم مبلغًا خرق به العادة المعهودة من تأثير الكلام في النُّفوس، واستيلائه على قلوب المخاطَبين استيلاءً كالقهر وما هو بالقهر، وفعله في قلوبهم كالسِّحر وما هو بالسِّحر، لا يختصُّ ذلك بالأنصار دون الخصوم، ولا بمحالفيه دون مخالفيه، ولقد أثَّر في الأعداء كما أثَّر في الأتباع.

إذن فلتكن غايتنا من قراءة القرآن الوصول لدرجة التأثر، فمهما فهمنا وتدبرنا الآيات دون أن يصاحب ذلك تأثر، فلن يفعل القرآن ما نريده منه، ولن نشعر بمعجزته، والتأثر هو وصول الحياة إلى قلوبنا.

إذن فالقرآن يسع جميع أفراد الأمة، ولِمَ لا وهو الكتاب الوحيد الذي يجتمع عليه الجميع، ولا يختلف على مصداقيته اثنان، والقرآن هو مشروع الأمة الذي من خلال الالتفاف حوله والاعتصام به: تتحطم قيود القلب؛ لينطلق بعد ذلك ركضًا إلى الله، وإلى



فعل ما يرضيه، نعم، هذا هو قدْر القرآن.

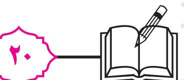
ولابد أن نتعامل مع القرآن على أنه كتاب هداية وشفاء وتقويم وتغيير، وهذا يستدعي منا أن نُقبل عليه، وأن نخصص له وقتًا ثابتًا كل يوم نلتقي به، ونُسلم له أنفسنا، ويُفضّل أن يكون هذا اللقاء في مكان هادئ حتى نُمكِّنه من إحداث التغيير داخلنا، وقد بيّن الله في القرآن أثر الآيات المشاهدة على الحقّ.

وسيكون الحديث عن أسباب التأثر بآيات الله المتلوة والمشاهدة في مبحثين:

المبحث الأول: أسباب الانتفاع بالقرآن.

المبحث الثاني: أسباب الانتفاع بالآيات الأخرى.





المبحث الأول

أسباب الانتفاع بالقرآن

«إذا أردت الانتفاع بالقرآن، فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه، منه إليه؛ فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾. [ق: ٣٧].

وذلك أن تمام التأثير لمَّا كان موقوفًا على مؤثر مقتضٍ، ومحلٍ قابل، وشرط لحصول الأثر، وانتفاء المانع الذي يمنع منه؛ تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد؛ فقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى ما تقدم من أول السورة إلى هاهنا - وهو الاحتجاج بالآيات الكونية المشاهدة، وهذا هو المؤثر.

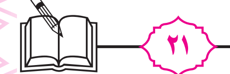
وقوله: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ فهذا هو المحل القابل؛ والمراد به القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾. [يس: ٦٩ - ٧٠]، أي: حي القلب. وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: وجه السمع، وأصغى حاسة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التأثر بالكلام. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب والفهم، ليس بغافل ولا ساهٍ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير وهو سهو القلب وغيابه عن تعقل ما يقال له والنظر فيه وتأمله.

فإذا حصل المؤثر؛ وهو: القرآن، والمحل القابل؛ وهو: القلب الحي، ووجد الشرط؛ وهو: الإصغاء، وانتفى المانع؛ وهو: اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر، حصل الأثر، وهو الانتفاع والتذكر»[1].

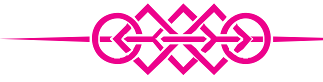
«وينبغي للتالي أن يستوضح من كل آية ما يليق بها، ويتفهم ذلك، فإذا تلا قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، فليعلم عظمته ويتلمح قدرته في كل

---

(١) الفوائد (ص٣).



ما يريد، وإذا تلا: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الواقعة: ٥٨]، فليتفكر في نطفة متشابهة الأجزاء كيف تنقسم إلى لحم وعظم،.. وإذا تلا أحوال المعذبين فليستشعر الخوف من السطوة إن غفل عن امتثال الأمر.. وينبغي لتالي القرآن أن يعلم أنه المقصود بخطاب القرآن ووعيده، وأن القصص لم يرد بها السمر بل العبر، فحينئذ يتلو تلاوة عبد كاتَبَهُ سيده بمقصود، وليتأمل الكتاب وليعمل بمقتضاه»(١).



(١) مختصر منهاج القاصدين (٥٥).



المبحث الثاني

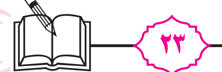
أسباب الانتفاع بالآيات الأخرى

«ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به وخافه ورجاه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣] وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الأعلى: ١٠] وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٥] وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾ [ق: ٤٥].

فالوعد والوعيد وذكره: شرط في الانتفاع بالعظات والآيات والعبر، يستحيل حصوله بدونه. وإنما تستبصر العبرة بثلاثة أشياء: بحياة العقل، ومعرفة الأيام، والسلامة من الأغراض.

والعبرة هي الاعتبار وحقيقتها: العبور من حكم الشيء إلى حكم مثله فإذا رأى من قد أصابته محنة وبلاء لسبب ارتكبه، علم أن حكم من ارتكب ذلك السبب كحكمه.

وحياة العقل: هي صحة الإدراك وقوة الفهم وجودته وتحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به وهو نور يخص الله به من يشاء من خلقه وبحسب تفاوت الناس في قوة ذلك النور وضعفه ووجوده وعدمه يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم وإدراكاتهم، ونسبته إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين ومن تجارب السالكين التي جربوها فألفوها صحيحة: أن من أدمن: «**يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت**» أورثه ذلك حياة القلب والعقل، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه شديد اللهج بها جدًا وقال لي يومًا: لهذين الاسمين وهما الحي القيوم تأثير عظيم في حياة القلب، وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم وسمعته يقول: من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر «**يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث**» حصلت له حياة القلب ولم يمت قلبه ومن علم عبوديات الأسماء الحسنى والدعاء بها وسر ارتباطها بالخلق والأمر وبمطالب



العبد وحاجاته عرف ذلك وتحققه، فإن كل مطلوب يسأل بالمناسب له فتأمل أدعية القرآن والأحاديث النبوية تجدها كذلك.

وأما معرفة الأيام: فيحتمل أن يريد به أيامه التي تخصه وما يلحقه فيها من الزيادة والنقصان ويعلم قصرها وأنها أنفاس معدودة منصرمة كل نفس منها يقابله آلاف آلاف من السنين في دار البقاء فليس لهذه الأيام الخالية قط نسبة إلى أيام البقاء والعبد منساق زمنه وفي مدة العمر إلى النعيم أو إلى الجحيم وهي كمدة المنام لمن له عقل حي وقلب واع فما أولاه أن لا يصرف منها نفسًا إلا في أحب الأمور إلى الله فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطًا فكيف إذا صرفه فيمالا ينفعه فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربه فالله المستعان ولا قوة إلا به.

ويحتمل أن يريد بالأيام أيام الله التي أمر رسله بتذكير أممهم بها كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] وقد فسرت أيام الله بنعمه وفسرت بنقمة من أهل الكفر والمعاصي، وأيامه تعم النوعين وهي وقائعه التي أوقعها بأعدائه ونعمه التي ساقها إلى أوليائه وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدث بها أيامًا لأنها ظرف لها تقول العرب فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس أي بالوقائع التي كانت في تلك الأيام فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر وبحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ⑦﴾ [يوسف: ١١١].

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض: وهي: متابعة الهوى والانقياد لداعي النفس الأمارة بالسوء فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل ويعمي بصيرة القلب ويصد عن اتباع الحق ويضل عن الطريق المستقيم فلا تحصل بصيرة العبرة معه البتة والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح والقبيح في صورة الحسن فالتبس عليه الحق بالباطل فأنى له الانتفاع بالتذكر والتفكر أو بالعظة.

وإنما تجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء: أحدها: قصر الأمل، والثاني: تدبر القرآن، والثالث: تجنب مفسدات القلب»[(١)].

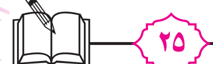
«وأما أفعاله ومخلوقاته - سبحانه - ففي الذي أشهدناه عبرة لما لم نشهده، والغائب من جنس الشاهد، وذلك لأن المماثلة ثابتة في المفعولات، كما قال تعالى: ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون، فلو لم يكن الغائب من أفعاله تعالى نظيرا للشاهد لم يجز رده،...!! فكيف إذا كان الغائب نظير الشاهد، حيث أشهدنا إبداع الجواهر وصفاتها بعد عدمها، يا سبحان الله أيما أبلغ في عقل الإنسان!! إبداع الإنسان بعد عدمه؟ أم إبداع طينته التي خلق منها بعد عدمها؟؟ فإذا كان قد شهد هذا الجوهر العظيم الموصوف بصفات الكمال بعد عدمه، أفليس ذلك أعظم من إبداع تراب أو ماء بعد عدمه؟ والله ﷻ لما خلق السموات والأرض، خلق آدم آخر المخلوقات، كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة، ومن خلق آخر المخلوقات لم يمكنه أن يشهد خلق نفسه، ولا ما خلق قبله، كما قال تعالى: ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وله فيما شهده في المخلوقات عبرة فيما لم يشهده»[(٢)].

«وكل ما خلقه مما فيه شر جزئي إضافي ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك مثل إرسال موسى إلى فرعون فانه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه وذلك شر بالإضافة إليهم لكن حصل به من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة والاعتبار بقصة فرعون ما هو خير عام فانتفع بذلك أضعاف أضعاف من استضر به كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: ٥٥ - ٥٦] وقال تعالى بعد ذكر قصته: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢٦].

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٧ - ٤٤٩).

(٢) تلبيس الجهمية (١/ ٢٩٢).



وكذلك محمد ﷺ شقي برسالته طائفة من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب وهم الذين كذبوه وأهلكهم الله تعالى بسببه ولكن سعد بها أضعاف هؤلاء»[١].

فما هي صفات هؤلاء المحسنين المتأثرين بما يسمعون ويشاهدون من آيات الله؟



(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٢٧٦).

الفصل الثاني

أقسام الناس في التأثر بآيات الله المتلوة والمشاهدة

قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣﴾.

فذكر الله المهتدين بها، وهم الذين تلقوا آيات الله وعملوا بها وعاشوا من أجل تحقيق الهدف من إنزالها وماتوا على ذلك. ووصفهم الله بالإحسان إشارة إلى الإحسان في القول والعمل وهو حقيقة الإيمان، فلا بد للإيمان الذي يوصف هنا بالإحسان من واقعٍ عمليٍّ، فهو ليس كلمة تقال باللسان ولكنه حقيقة في القلب وعمل في الواقع. وهؤلاء المتأثرون قد انتفعوا بآيات الله المتلوة والمشاهدة كما في آيات هذه السورة وغيرها.

وهناك من استكبر فتميز كذلك بصفاتٍ حالت دون تأثره بالآيات المتلوة والمشاهدة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧﴾.

فصار المكلفون إلى صنفين:

الصنف الأول: المتأثرون بآيات الله (المحسنون).

الصنف الثاني: المستكبرون على آيات الله.

فانتظم النظر في الصفات الموجبة لهذا الأمر في مبحثين، كالتالي:

المبحث الأول: صفات المحسنين المتأثرين بما يسمعون ويشاهدون من آيات الله:

أولًا: إقامة الصلاة.

ثانيًا: إيتاء الزكاة.

ثالثًا: اليقين بالآخرة.

رابعًا: الاستسلام لله ﷻ.

خامسًا: الصبر والشكر.

المبحث الثاني: صفات المستكبرين عن آيات الله المتلوة والمشاهدة:

أولًا: استبدال آيات الله بلهو الحديث.

ثانيًا: إضلال الناس عن الحق.

ثالثًا: عدم العلم.

رابعًا: اتخاذ آيات الله هزوا.

خامسًا: الاستكبار عن سماع آيات الله.

سادسًا: الجدال في الله بغير علم ولا هدي ولا كتاب رباني.

سابعًا: الكفر والغدر.



المبحث الأول

صفات المحسنين المتأثرين بما يسمعون ويشاهدون من آيات الله

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾، فذكر لهم أهم صفات النجاة وهي إجمالًا:

أولًا: إقامة الصلاة:

فهم يؤدون الصلاة على وجهها، في وقتها، أداء كاملًا، تتحقق به حكمتها وأثرها في الظاهر والباطن، فيتم الأنس فيها بالله، ويتذوق المصلي حلاوة طاعته حتى يتعلق القلب بالصلاة، وتُقَوِّم سلوك الفرد في الحياة.

ثانيًا: إيتاء الزكاة:

إيتاء الزكاة صفة تحقق استعلاء النفس على شحها الفطري قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾ [التغابن: ١٦]، وإقامة نظام لمجتمع مسلم يرتكز على التكافل والتكامل والتعاون، يجد المحروم فيه الثقة والطمأنينة، ومودة القلب التي لم يفسدها الترف ولا الحرمان.

ثالثًا: اليقين بالآخرة:

إن المتأثرين بآيات الله يحصل لهم يقين بما عند الله من الخير والرحمة وحسن الجزاء في الدنيا والآخرة ولذلك ينتج عن هذا اليقين: يقظة القلب، وتطلعه إلى ما عند الله، وترفعه عن متاع الحياة الدنيا، ومراقبة الله القليل والكثير، وفي السر والعلن.

رابعًا: الاستسلام لله جل جلاله:

قال تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى

ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ قال ابن عباس: «العروة الوثقى لا إله إلا الله»[١] فإن من أسلم أمره كله لله، وتوجه إليه وحده وأحسن العمل والظن والقول، فهذا هو حقيقة الإيمان الكامل الذي وصف في بداية السورة بالإحسان، ويكرر الوصف مرة أخرى، مدحا لهم فهم يستمسكون بالعروة الوثقى فلا يلتفتون لنداء ضلال آبائهم وأجدادهم ولا لنداء الشيطان الذي لو اتبعوه لجرهم ودفعهم إلى عذاب عظيم.

خامسًا: الصبر والشكر:

قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٣١﴾﴾ «يخبر تعالى أنه هو الذي سخر البحر لتجري الفلك فيه بتسخيره ليريكم قدرته، وهذا فيه آية وموعظة لكل صبار في الضراء، شكور في الرخاء»[٢].

ويفهم من هذا أن الذين يتأثرون بآيات الله إذا وقع بهم البلاء في البحر صبروا لأنهم يعلمون أن البحر بيد الله فيدعون الله، وإذا نجاهم الله من البحر شكروا الله على نعمة النجاة فهم في دائرة بين الصبر والشكر، وأنه لا ينتفع من الآيات إلا من كان له نصيب وافر من الصبر والشكر، فإذا تخلف الانتفاع بالآيات الشرعية أو الكونية فقد يكون ذلك من جهة ضعف الصبر أو الشكر.

وفي الآية فائدة في أن الصبر والشكر يحتاجان لنوع من الممارسة والتكرار حتى يتم الانتفاع بهما.

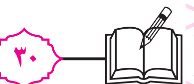
فهؤلاء الصنف قوم تأثروا بآيات الله فعرفوا الله وآمنوا بالله وتلقوا عن الله وعن رسول الله ﷺ واستسلموا لمنهج الله وصبروا عليه وشكروا الله عليه، فنتج عن ذلك هداية جعلت لهذا العلم وهذا التأثر أثرًا على القلب والجوارح، وذلك بالطمأنينة وبالعمل.

فما نتيجة ذلك الإحسان؟

---

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في جامع البيان (٢٠/ ١٥٠)، وابن أبي حاتم (٢٦٢٤)، والطبراني في الدعاء (١٥٦٥)، وزاد في الدر المنثور (٢/ ٢٢) نسبته لابن المنذر، وانظر: الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٧٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٥١).



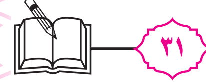
قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾.

فنتيجة ذلك الإحسان: الفلاح في الدنيا بإتباع المنهج الحق الذي يطهر القلوب والسلوك، ويرفع الإنسان فوق الدنس الذي يعيش فيه مجتمعه، فيتذوق السعادة العاجلة والراحة والطمأنينة في الحياة.

وأيضًا أفلحوا في الآخرة الفلاح الأكبر بالنجاة من النار، ويظهر ذلك حين يدخل الكفار النار في العذاب المقيم، ويدخلون هم في الجنة في النعيم المقيم، قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ﴾ [الأعراف: ٤٤].





المبحث الثاني

الصنف الثاني: المستكبرون عن آيات الله

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ ﴾.

كتاب الله مثاني، تثنى فيه الأخبار والأحكام، فلما ذكر سبحانه صفات عباده المحسنين المنتفعين بآياته المتلوة - كما في أول السورة - والمشاهدة - كما في ثنايا السورة - عقب ذلك بالصنف المقابل لهم وهم المسيئون لأنفسهم الظالمون لها وهؤلاء صفاتهم إجمالًا:

أولا: استبدال آيات الله بلهو الحديث:

قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾. «لهو الحديث كل ما شغلك عن عبادة الله تعالى وذكره، من السمر والأضاحيك والخرافات والغناء ونحوها»[١].

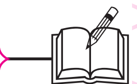
وقد استدل كثير من العلماء على تحريم الغناء بهذه الآية كما ورد ذلك عن الصحابة ومنهم ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم[٢]. فقد قال ابن عباس رضي الله عنه: (هو الغناء وأشباهه)[٣].

فلهو الحديث هو: «الأحاديث الملهية للقلوب، الصادة لها عن أجلّ مطلوب، فدخل في هذا، كلام كل محرم، وكل لغو باطل، والأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، وأقوال المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة ونميمة، وكذب، وشتم وسب،

(١) موضوعات سور القرآن - سورة لقمان (ص٩) وعزاه للحسن البصري رحمه الله.

(٢) تفسير الطبري (٢١/ ٤٠)، ابن أبي حاتم (٩/ ٣٠٩٦)، والدر المنثور (١١/ ٦١٥).

(٣) الأدب المفرد للبخاري (٧٨٦) سنن البيهقي (١٠/ ٢٢٣). وصحح إسناده الألباني في صحيح الأدب المفرد (٦٠٣).



ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الأمور التي لا نفع فيها لا في دنيا ولا دين»[١].

فالإنسان الذي يختار لهو الحديث بدلًا عن ذكر الله وآياته داخل في هذا الصنف، فهو ظالم لنفسه بذلك الاستبدال، وليس من الضروري أن يكون الشراء بالمال، فليس المال هو الشيء الوحيد في الحياة! إنه شراء تدفع فيه المشاعر والأفكار، والاهتمامات والنوايا بدلا من المال، فهذه كلها أشياء تنفق ليُشترى بها الحق أو يشترى بها الباطل.

فإن «للمسلم في هذه الحياة رسالة تسموا على اللهو والعبث والغناء، فهو منذ رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ نبيًا ورسولا قد بايع ربه على الجهاد وباع نفسه لربه بالجنة، وحمل رسالة محمد ﷺ ليبلغها الدنيا وسكانها. واللهو والغناء كما هو معروف لهما ثمن باهظ يدفعه المرء من ماله ومن وقته ومن صحته ومن تفكيره»[٢].

ثانيًا: إضلال الناس عن الحق:

قال تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ «أي ليصد ذلك الذي يشتري من لهو الحديث عن دين الله وطاعته، وما يقرب إليه؛ من قراءة قرآن، وذكر الله»[٣]، «فيضلون ناسًا غير عالمين يحسبون إضلالهم نصحًا، والمقصود من هذا الحال تعظيم التضليل لا تقييده فإن التضليل لا يكون إلا عن عدم علم كلًا أو بعضًا»[٤]، «فهو يشغل الناس بلهو الحديث ليصرفهم عن القرآن»[٥].

فهذا الذي يشتري لهو الحديث، يشتريه بانصراف مشاعره واهتماماته إليه، وبنية خبيثة أن يفتن الناس عن الوحي المنزل من عند الله على رسول الله ﷺ، وذلك أن سبيل الله حق والغناء ولهو الحديث أباطيل ومشاعر كاذبة وسكر ساعة، يتبعها عذاب وافتتان وتعلق وعبودية لغير الله بل صد عن سبيل الله ومحبته.

---

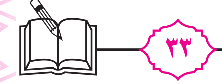
(١) تيسير الكريم الرحمن (٦٤٧).

(٢) من لطائف التفسير (٣/ ١٠١).

(٣) جامع البيان (١٨/ ٥٣٩).

(٤) التحرير والتنوير (١٤/ ١٢٩).

(٥) التحرير والتنوير (٢١/ ١٤٣).



ثالثًا: عدم العلم:

قال تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ «أي: عن غير بصيرة في صالح نفسه حيث يستبدل الباطل بالحق»[١]، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٨﴾﴾ [الحج: ٨]. «فتقييد اتباع الهوى بأنه بغير علم تشنيع لهذا الإتباع فإنه إتباع شهوة مع جهالة»[٢].

«فالعلم بمعناه الصحيح هو: حكم الذهن المطابق للواقع عن ضرورة أو برهان»[٣]، وهذا بضلاله: «فعل ما فعل من اشتراءه لهو الحديث، جهلًا منه بما له في العاقبة عند الله من وزر ذلك وإثمه»[٤].

فهم يضلون الناس بغير حجة ولا برهان نقلي ولا عقلي، فيضلون الناس بالجهل وبالعمل الذي يخالف العلم فإن المسألة ليست في المعلومات التي يعلمها فحسب - ولو كانت متعلقة بالله سبحانه -، إنما هي عمله بهذه المعلومات، وكذلك فإن الإنسان إذا لم تكن هذه المعلومات موجودة في تصرفاته العملية فكأنه لم يعلم شيئًا، فيستوي إذًا الإنسان الجاهل مع الإنسان الذي عنده معلومات ولا يطبقها كما أمر الله، بل قد يكون الجاهل أخف ضررًا منه، لأن هذا الذي عنده العلم ولا يحققه في واقعه يكون سببًا في ضلال الناس، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ «والمقصود من الإخبار عن كونه بغير علم أنهم فعلوا ذلك ظنًا منهم أنهم أصابوا فيما فعلوا»[٥].

ومما يدل على ما ذكرنا من أن العلم ليس بالمعلومات ولكن بالعمل، ما ذكره تعالى

---

(١) المرجع السابق.

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ٨٨).

(٣) التحرير والتنوير (٧/ ٤٠٤).

(٤) جامع البيان (١٨/ ٥٤٠).

(٥) التحرير والتنوير (٨/ ١١٣).

في هذه السورة عن الذين يرون آيات الله ويعلمون ويعترفون أن الله هو الخالق لها والمبدع فيها ثم لا يعملون بذلك، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾، فقد وصفهم الله تعلى هنا بأنهم لا يعلمون مع أنهم يقرون ويعلمون. ولذا فعلمهم مهما بلغ لا يتجاوز ظاهر الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [الروم: ٧]. لأن الحياة الدنيا زخرف وزينة مؤقتة، والحياة الآخرة هي الحياة الحقيقية ولذا كان علمها وما يوصل إليها من شرع أو وسائله هو العلم الحقيقي المعتبر.

ولذا: «فإنهم يعرفون أن الله خالق السماوات والأرض وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء»[(١)]، ويعرفون أن الله هو الخالق! ولكنها المعرفة الذهنية الباردة الميتة، التي لا تنشئ شعورًا ولا سلوكا، ومن ثم فمعرفتهم والجهل سواء: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

رابعًا: اتخاذ آيات الله هزوا:

قال الله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾﴾ وهذا نتيجة الجهل عمومًا، والجهل المركب خصوصًا، ونتيجة عدم التأثر بآيات الله، والاستهزاء يورد صاحبه المهالك، فالذين يسمعون آيات الله ولا يعملون بها بل ويعملون بخلافها قد استهزؤوا بآيات الله ودين الله تعالى، وهذا الاستهزاء عملي وهو الذي يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾.أما الاستهزاء الثاني فهو أن يتخذها سخرية وعيبًا وتنديدًا، والعياذ بالله - كما حصل من المنافقين، فقال الله فيهم: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ - ٦٦].

«ثم إن الإنسان إذا تعود على سماع اللهو؛ عزف عن القرآن، وعن تدبر آيات الله،

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٤٨).

ثم تكون الخطوة الموبقة، وهي: أن يستهزئ بآيات القرآن وأحكام الدين، فتلك قاصمة الظهر»[١].

ومن صور اتخاذ آيات الله هزوًا: استعمالها فيما لا يصلح لمثلها كاستعمالها في الطرائف والنكت على الناس، أو تحريفها والإلحاد فيها، والخوض فيها بلا علم ولا حجة ولا برهان، وتعليقها في الأماكن غير المحترمة وتأويلها وتنزيلها على أمور لا تليق بها.. وغير ذلك.

خامسًا: الاستكبار عن سماع آيات الله:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾ «ذكر جل وعلا في هذه الآية أن الكافر إذا تتلى عليه آيات الله، وهي هذا القرآن العظيم، ولى مستكبرا، أي متكبر عن قبولها﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ﴾: أي صممًا وثقلًا مانعًا له من سماعها»[٢].

وهذا حال كثير من الذين لا يريدون أن يحكموا شرع الله في أنفسهم أولًا وفي واقعهم ثانيًا، لا يريدون أن يسمعوا، فضلًا على أن يتأثروا بكلام الله، وذلك خوفًا على دنياهم، واستكبارًا في أنفسهم أن يسمعوا كلام أحد.

وفي قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ فائدة: أنه قد سمعها!! ولكن سماع صوت، لا سماع انتفاع وتعلم وطلب للحق، ولذا قد نجد من المستشرقين وغيرهم ومن ضُلاَّل المسلمين من يحفظ آيات الله ويدرسها!! ولكن لا ينتفع منها بشيء!! نعوذ بالله تعالى من الخذلان[٣].

سادسًا: الجدال في الله بغير علم ولا هدي ولا كتاب رباني:

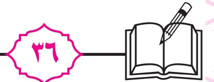
قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً

---

(١) من لطائف التفسير (٣/ ١٠١).

(٢) أضواء البيان (٦/ ٤٩٥).

(٣) يطول الحديث عن موضوع الانتفاع بالقرآن، وقد أفرد بالتأليف مثل كتاب (كيف ننتفع بالقرآن) د. مجدي الهلالي.



وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾.

يخبرنا تعالى وهو يعرض نعمه على عباده - حيث أنه سخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، وجعلهم يعيشون في نعمه الظاهرة والباطنة، «من إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة الشبه والعلل»[1]، ومع ذلك يجادلون في الله، في وجوده أو في عبوديته.

فهؤلاء الذين يجادلون بغير علم يرفضون إتباع ما أنزل الله ويقولون بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، فمن المعبود المطاع إذًا؟ الله أم آبائهم؟

ما الدافع لهم والمبعد لهم عن إتباع ما أنزل الله؟

هل آباءهم فقط كما يزعمون؟ أم أن هناك محركٌ آخر لهم؟

نعم يوجد محرك آخر يدعوهم إلى القول بهذه الحجة، إنه الشيطان فهو يدعوهم ويغريهم ويحثهم ويزين لهم ويعدهم ويمنيهم طريقًا يؤدي بهم إلى عذاب السعير، العذاب العظيم.

ومن غفلتهم أنهم استجابوا له بكل سهولة، مع ظهور آيات الله وأنهم يرونها بأعينهم ويحسونها في حياتهم اليومية وذلك من خلال إسباغ الله النعم عليهم الظاهرة والخفية.

سابعًا: الكفر والغدر:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

«**الختار**: هو الغدار، وهو: الذي كلما عاهد نقض عهده، فالختر أتم الغدر وأبلغه.

والكفور: الجحود للنعم لا يشكرها»[2].

وهذان الوصفان عكس صفة المتأثرين، فالمتأثرون بآيات الله يصبرون ويدعون

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٤٧).

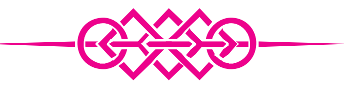
(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٥١).

الله، ويشكرون الله، كما قال تعالى عنهم: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾ [آل عمران: ١٩١]. فهذا حالهم مع الآيات الحسية.

وأما الآيات المتلوة فقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٥].

فعباد الله يتأثرون بآيات الله كلها المتلوة والمشاهدة، أما الذين لا يتأثرون فهم يتذكرون الله في وقت الشدة وبعد أن ينجيهم من الشدة يجحدون فينسون نعمة الله وينكرون آياته وينقضون العهد مع الله ولذلك قال الله عنهم: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

فهؤلاء صنف لم يتأثروا بآيات الله المتلوة والمشاهدة، واستبدلوا بآيات الله لهو الحديث، وأضلوا الناس بغير علم، واستكبروا عن سماع آيات الله، وجادلوا في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب رباني، وأيضًا كفروا بتلك الآيات مع علمهم بالله تعالى فحق عليهم العذاب الأليم والمهين، قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٣ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ٢٤﴾ أي: «لا تحزن يا محمد عليهم من كفرهم بالله وبما جئت به، فإن قدر الله نافذ فيهم، فإن الله لا تخفى عليه خافية، نمتعهم قليلًا في الدنيا ثم نلجئهم إلى عذاب فظيع صعب مشق على النفوس[1]».



(١) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٤٧) بتصرف.

الباب الثاني

الحكمة في وصايا لقمان ﵁

ويشمل تمهيدٍ وعشرة فصولٍ:

تمهيد في: لقمان الحكيم ومعالم حكمته.

الفصل الأول: الوصية الأولى: شكر الله ﷻ:

المبحث الأول: فضل الشكر وأهميته.

المبحث الثاني: حقيقة الشكر.

المبحث الثالث: ثمار الشكر.

الفصل الثاني: الوصية الثانية: النهي عن الشرك:

المبحث الأول: البدء بالتوحيد والنهي عن الشرك أول دعوة الأنبياء.

المبحث الثاني: لماذا البدء بالتوحيد؟.

المبحث الثالث: لماذا النهي عن الشرك؟.

الفصل الثالث: الوصية الثالثة: الوصية بالوالدين:

المبحث الأول: الأخلاق والعقيدة.

المبحث الثاني: فضل بر الوالدين وأهميته.

المبحث الثالث: حقوق الأبوين.

الفصل الرابع: الوصية الرابعة: استشعار رقابة الله ﷻ:

المبحث الأول: الرقابة من خلال الآية.

المبحث الثاني: الشواهد على المراقبة من الكتاب والسنة.

المبحث الثالث: آثار وأقوال العلماء في المراقبة.

المبحث الرابع: فوائد المراقبة.

الفصل الخامس: الوصية الخامسة: الوصية بإقامة الصلاة:



المبحث الأول: فضل إقامة الصلاة وأهميتها.

المبحث الثاني: أقسام الناس في الصلاة.

المبحث الثالث: خطوات عملية لإقامة الصلاة.

الفصل السادس: الوصية السادسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المبحث الأول: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الثاني: حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الثالث: تنبيهات مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفصل السابع: الوصية السابعة: الوصية بالصبر:

المبحث الأول: فضل الصبر وأهميته.

المبحث الثاني: أنواع الصبر.

المبحث الثالث: ابتلاء الله للصالحين.

المبحث الرابع: نماذج الصابرين.

المبحث الخامس: طرق اكتساب الصبر.

الفصل الثامن: الوصية الثامنة: النهي عن الكبر:

المبحث الأول: الأدلة على عظيم أمر الكبر والنهي عنه.

المبحث الثاني: طرق اكتساب التواضع.

الفصل التاسع: الوصية التاسعة: القصد في المشي:

المبحث الأول: القصد في المشي من صفات المؤمنين.

المبحث الثاني: هديه ﷺ في المشي.

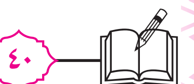
المبحث الثالث: آداب المشي.

الفصل العاشر: الوصية العاشرة: خفض الصوت:

المبحث الأول: الحكمة في الأمر بغض الصوت.

المبحث الثاني: آداب الحديث.





تمهيد

لقمان الحكيم ومعالم حكمته

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ [لقمان: ١٢]. «جمهور العلماء على أن لقمان ليس بنبي وإنما هو رجل صالح»(١).

والقصة تدل على: «أن الله أعطى هذا الرجل الصالح الحكمة، وهي: الفهم والعلم والتعبير، وأمره الله ﷻ أن يشكره على ما آتاه ووهبه من الحكمة التي خصه بها عمَّن سواه من أبناء جنسه، وهذا الشكر إنما يعود نفعه على الشاكرين، والله سبحانه غني عن شكر الشاكرين وإنما هذا الشكر لهم وثوابه يعود عليهم»(٢).

فالحكمة: «العقل والفهم والفطنة»، أو «هي: العقل والفقه والإصابة في القول من غير نبوة»(٣).

فدلت هذه الآية على أن الحكمة موهوبة ونعمة من عند الله تعالى، يؤتيها الله من يشاء، كما قال ﷻ: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩]، ولكن لا بد من بذل أسبابها والحرص على ترك موانعها؛ ولذلك دعى النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما بها: «اللهم علمه الحكمة»(٤).

ويُضرب بلقمان المثل في الحكمة، وحِكَمُه كثيرةٌ جدًا، بعضها نقل إلينا، وبعضها لم ينقل، أو في نقله شوائب، وهذه الآيات تضمنت نصائح وتوجيهات جامعة ذكرها الله عنه

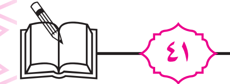
---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٣٣٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٣٣٥.

(٣) روح المعاني ٢١/ ٨٣.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر ابن عباء رضي الله عنهما (٣٦٥٧).



في هذه السورة الكريمة وهي خير ما وصل إلينا.

وهذه الوصايا تمثل تكامل الشريعة الإسلامية، حيث أنها جمعت بين التوحيد والعبادة والأخلاق، فإنها شملت جميع نواحي الحياة، مع اختصار في اللفظ، وجزالة في المعنى؛ حتى أن كل أمر من أمور الدين يمكن أن يدخل تحتها.

وتضمنت هذه الوصايا أمورًا تدل على حكمة لقمان ﵁، ومن أبرزها:

أولا: أنه اهتم بإصلاح ولده:

فالرجل الحكيم هو الذي يهتم بخاصة أهله قبل أن يبدأ بغيرهم من الناس قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ [التحريم: ٦]، وهذه من صفات الأنبياء، فإنهم يبدءون في دعوتهم بدعوة أهليهم وأولادهم وإصلاحهم، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: ١٣٢]. وكذلك النبي ﷺ أمره ربه: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وفعلًا بدأ في دعوته ﷺ، والأنبياء كلهم كذلك عليهم الصلاة والسلام.

والنبي ﷺ نبه على أن الولد الصالح من الأمور التي تنفع الميت بعد موته: قال ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوا له**»(١)، فهذا فيه دلالة قوية على أن الحكمة تقتضي الاهتمام بتربية الأولاد لكي ينفع الله بهم أهليهم، وأمتهم، وقبل ذلك أنفسهم في الحياة الدنيا ويوم القيامة.

ثانيا: تلك الوصايا التي وصى بها ولده:

فقد وصاه بعشر وصايا فيها من الحكمة الشيء الكثير. «وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ليمتثلها الناس ويقتدوا بها»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٦/ ٣٣٧.

«فهذا لقمان الحكيم ينظر إلى ابنه نظرة رحمة وإشفاق، ومن أجل أن لا يتردى في مهاوي الزيغ والضلال، يعظه وعظًا جامعًا مانعًا، ويخرج له عصارة الحِكَمِ وأمهات المواعظ، من القلب إلى القلب»[1].

وسنعرض تلك الوصايا ونستنتج منها مدى الحكمة التي وهبها الله للقمان لتكون لنا نبراسا في حياتنا نطبقها ونعمل بها، ونوصي بها أبنائنا، وهذه الحكمة أخرجت منه وصايا لابنه وهو يعظه.

وإليك بيانها- وهي عشر وصايا - في عشرة فصول:

الوصية الأولى: شكر الله ﷻ: وفيها: فضل الشكر، وأهميته،وحقيقته، وثماره.

الوصية الثانية: النهي عن الشرك: وفيها: البدء بالتوحيد والنهي عن الشرك أول دعوة الأنبياء. ولماذا البدء بالتوحيد؟. ولماذا النهي عن الشرك؟.

الوصية الثالثة: الوصية بالوالدين: وفيها: الأخلاق والعقيدة. وفضل بر الوالدين وأهميته. وحقوق الأبوين.

الوصية الرابعة: استشعار رقابة الله ﷻ: معنى الرقابة من خلال الآية، والشواهد على المراقبة من الكتاب والسنة، وآثار وأقوال العلماء في المراقبة، وفوائد المراقبة.

الوصية الخامسة: الوصية بإقامة الصلاة: وفيها: فضل إقامة الصلاة وأهميتها. وأقسام الناس في الصلاة. وخطوات عملية لإقامة الصلاة.

الوصية السادسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: وفيها: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتنبيهات مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الوصية السابعة: الوصية بالصبر: وفيها: فضل الصبر وأهميته. وأنواع الصبر. وابتلاء الله للصالحين. ونماذج للصابرين. وطرق اكتساب الصبر.

---

(١) لقمان الحكيم وحكمه- محمد يوسف - دار القلم ص١٤٠.

الوصية الثامنة: النهي عن الكبر: وفيها: الأدلة على عظيم أمر الكبر والنهي عنه. وطرق اكتساب التواضع.

الوصية التاسعة: القصد في المشي: وفيها: أن القصد في المشي من صفات المؤمنين. وهديه ﷺ في المشي. وآداب المشي.

الوصية العاشرة: خفض الصوت: وفيها: الحكمة في الأمر بغض الصوت. وآداب الحديث.



الفصل الأول

الوصية الأولى: شكر الله جل جلاله

المبحث الأول

فضل الشكر وأهميته

لا شك أن شكر الله تعالى على نعمه العظيمة التي لا تحصى ولا تعد واجبٌ على العباد، وتتضح تلك الأهمية في أن الأمر به والحث عليه أمرٌ ظاهرٌ في نصوص القرآن الكريم؛ فمن ذلك:

١- أن الله أمر عباده بالشكر في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١١٤﴾﴾ [النحل: ١١٤] وقال تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

٢- وأخبر الله أن الشاكر لله هو العابد له سبحانه فقال تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢] بل إن الله سبحانه يطلب من عباده الشكر على نعمه قال تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة: ٦].

٣- وبين الله تعالى جزاء الشاكرين وعقاب الكافرين، فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

٤- وقال تعالى منبها أن الله لا يعذب عباده إذا شكروه: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴿١٤٧﴾﴾ [النساء: ١٤٧].

٥- وأمر الله عباده بالشكر وأرجع عاقبته لهم: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿١٢﴾﴾.

٦- وقد قَسَّمَ الله تعالى الناس إلى كفور وشكور، وبيَّن مصير هؤلاء وهؤلاء، فقال: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾ [الزمر: ٧].

٧- وقــد مــدح الله الشــاكرين وجعل جزائهم إليه قال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٥]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنعام: ٥٣].

٨- وبيّنَ الله تعالى أن المستفيدين من آياته هم أهل الشكر قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأعراف: ٥٨].

٩- وذم وتوعد المتخلفين عن وعدهم له بالشكر فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٢ - ٢٣].

١٠- وكان ﷺ يقوم الليل حتى تتورم قدماه، فيقال له: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول رسول الله ﷺ: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»[١].

١١- و«أخبر الله سبحانه أن عدو الله إبليس جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عن الشكر، وذلك لما عرف عظم قدر مقام الشكر، وأنه من أجلِّ المقامات وأعلاها، وذلك في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ

---

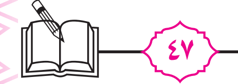
(١) أخرجه البخاري كتاب التهجد باب قيام النبي ﷺ الليل حتى تتورم قدماه (١١٣٠). ومسلم كتاب الجنة والنار باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٧]»[١].

أي: لا تجد أكثرهم عابدين، ولا تجد أكثرهم متبعين لما أنزل الله، فليس الشكر كلمة تقال باللسان، كما أن الإيمان بالله ليس كلمة تقال، فهي كلمة تحتاج إلى عمل كما أن الإيمان يحتاج إلى عمل ومن هنا نفهم خطورة التهديد الشيطاني لبني آدم، ولذلك فإن الذين يشكرون الله تعالى قليل، قال تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٣].



(١) فقه الأدعية والأذكار - الجزء الأول - (ص٢٧٢).



المبحث الثاني

حقيقة الشكر

الشكر ليست كلمة تقال باللسان، أو زخرفًا من القول يخلو من المضمون، ولكنه اعتقادٌ وقولٌ وعملٌ كما أن الإيمان اعتقادٌ وقولٌ وعملٌ.

فحقيقة الشكر ومضمونه: «الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة»[١]. فرأس الشكر وأسه هو توحيد الله ﷻ بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ إذ التوحيد غاية الوجود ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء:٢٥].

ومما عبر به السلف الصالح عن الشكر ومضمونه: «لا تعصي الله بنعمه»، وقال آخر: «أَلاَّ ترى معه شريكا في نِعَمِهِ»، وقيل: «هو الإقرار بالعجز عن الشكر»[٢].

«وبهذا يتبين أن الشكر مبني على خمس قواعد:

١- خضوع الشاكر للمشكور.

٢- وحبه له.

٣- واعترافه بنعمته.

٤- وثنائه عليه بها.

٥- وأن لا يستعملها فيما يكره»[٣].

وَمَحَلُّ الشكرِ: «يكون بالقلب خضوعًا واستكانةً ومحبةً، وباللسان ثناءً واعترافًا، وبالجوارح طاعة وانقيادًا»[٤].

---

(١) فقه الأدعية والأذكار - القسم الأول - (ص٢٧٥).

(٢) تفسير النسفي (٤/ ١٣٠).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٤٤) مختصرًا.

(٤) مدارج السالكين (٢/ ٢٤٦).

- **أما الشكر بالقلب**: فهو أن يقصد الخير ويضمره للخلق كافة، ولا يتعلق قلب المؤمن إلا بالله في جميع أنواع العبادات القلبية من خوفٍ ورجاءٍ وتوكلٍ ورضا... وغيرها.

- **أما الشكر باللسان**: فهو إظهار الشكر بالتحميد، والتحدث بنعمة الله تعالى بين الناس، ورد النعمة لله تعالى أولًا وآخرًا، أي: إظهار الرضا عن الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١].

- **أما شكر الجوارح**: فهو استعمالها في طاعة الله تعالى، واجتناب استعمالها في معصية الله.

فإن الله سبحانه رزق العبد سمعًا وبصرًا وجسمًا، فمن شُكْرِ الله على هذه النعم أن يستعملها في طاعته سبحانه ولا يستعملها في معصيته.

فلا يسمع الإنسان بأذنه غناء ولا نميمة، ولا أيَّ معصيةٍ لله بل يسمع بها الخير والقرآن.. وغيرها من الصالحات.

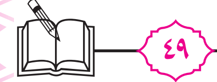
ولا يطلق الإنسان بصره فيما حرم الله تعالى، بل يغض بصره ويستعمله في الخير والعمل به...

وقِسْ على ذلك جميع النعم التي أنعم الله علينا بها.

والشكر يكون لله في كل شيء، والدليل على ذلك قوله تعالى بعد الوصية بالأبوين: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ لأن الله سبحانه هو المنعم عليك أولًا، فأي نعمة فهي من الله أولًا، وما العبد إلا وسيلة لإيصال هذه النعمة.

ويجب أن يكون الشكر لله أول واجبٍ يؤديه العبد، ليتحقق له الكمال والخضوع للمنعم المتفضل المحسن جَلَّ جَلَالُهُ.

ونعم الله لا تعد ولا تحصى قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّوا



نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴿٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ومن هنا وجب على المؤمن في مقابل هذه النعم أن يشكرها، بل أن يكون كثير الشكر لها، ومجددًا لها الشكر في كل حين، ولو بعد انقضاءها، فإن نعمة الباري جليلة وعظيمة، وتلك النعمة لا تزال في رقبة العبد أثرٌ وبقيةٌ، ولذا امتن الله علينا بخلق أبينا آدم، وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ونحو ذلك.



المبحث الثالث

ثمار الشكر

إن للشكر ثمرات دنيوية وأُخروية، وقد بينها الشارع الحكيم حثًّا للعباد على عبودية الشكر، ونجملها في عشر نقاط[١]:

١- **التوفيق والسداد**: وذلك «بأن يُوفق الإنسان الشاكر ويُسدد إلى الحق، في أقواله وأفعاله، فيكون بهذا حكيما»[٢]. وهذا كما حصل للقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- **من يشكر الله تعالى على نعمة فإنما يشكره لأجل نفسه**: قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ فإن الله سبحانه غَنِيٌّ عن خلقه.

٣- **أن الله يعطيه المزيد ويبارك له مطلقًا**: فيشمل النوع والعدد وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ [إبراهيم: ٧].

٤- **الجزاء الحسن والكثير من الله تعالى**: كما قال الله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران: ١٤٥].

٥- **تحقيق العبودية لله والرضا بذلك**[٣]: قال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

٦- **الأمن من عقوبة الله**: قال تعالى عن قوم سبأ حينما أعرضوا عن شكر الله ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ

(١) يمكن للاستزادة مراجعة كتاب الشكر في القرآن، وكاملة الأنوار حجاب، نشر دار الآفاق العربية، وعدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم وغيرها.

(٢) موضوعات سور القرآن - سورة لقمان - (ص٢٠).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٨٥).

﴿طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ: ١٥ - ١٧]، قال العلماء: أعرضوا عن الشكر.

٧- **السرور والطمأنينة والرضا**: وهي من أعلى مقامات الإيمان[١] وذلك لقول النبي ﷺ: «**عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**»[٢].

٨- **تحقيق متابعة الأنبياء عليهم السلام**: فقد قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢١] والنبي ﷺ كان يقول: «**أفلا أكون عبدا شكورا**»[٣].

٩- **استجلاب صفات المدح والكمال لبعضها البعض**: فالصبر رفيق الشكر[٤] كما في الحديث المتقدم: «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**».

١٠- **حصول عاجل الثواب**: في الدنيا وفي الآخرة[٥]، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧].



(١) طريق الهجرتين (ص٥٠٨)، مدارج السالكين (٢/ ٢٠٩).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

(٣) أخرجه البخاري كتاب التهجد باب قيام النبي ﷺ الليل حتى تتورم قدماه (١١٣٠). ومسلم كتاب الجنة والنار باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

(٤) عدة الصابرين (ص١٢٣ - ١٢٤).

(٥) مدارج السالكين (٢/ ٢٥٢).

الفصل الثاني

الوصية الثانية: النهي عن الشرك

إن البدء بالتوحيد والنهي عن الشرك أول دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأتباع الأنبياء على أثرهم وسنتهم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾. الوعظ: هو زجر مقترن بتخويف، أو تذكير بالخير فيما يرق له القلب[١]. يا بني: هذا تصغير إشفاق ومحبة لا تصغير تحقير[٢].

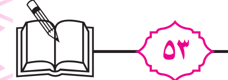
وهذه أعظم الوصايا وأهمها ولذلك وصى بها لقمان رضي الله عنه ابنه، وهذه هي سنة الأنبياء عليهم السلام في الدعوة إلى الله، يبدؤون أولا بتصحيح المعتقد عند الناس، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. وهذا من حكمته حيث أراد أن يتبع سنة الله في الأنبياء فيؤسس عند ابنه أولا أساس التوحيد.

وسيتبين لنا ذلك من خلال المباحث التالية:



(١) روح المعاني (٢١/ ٨٥).

(٢) روح المعاني (٢١/ ٨٤).



المبحث الأول

لماذا البدء بالتوحيد؟

١- **لأن التوحيد يُنْجي العبد من النار**؛ قال ﷺ: «**يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا اله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير**»[1].

٢- **تحصيل الأمن والهداية من الله**؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

٣- **لأن الأمر بالتوحيد هو أصل دعوة الأنبياء**؛ فما بعثوا إلا من أجله ولذا تضافرت دعوات الرسل على تحقيق التوحيد؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فالمستجيب قد قبل دعوة المرسلين جمعًا.

٤- **لأن رسول الله ﷺ أمر بالبدء بالتوحيد**؛ فعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال: «**إنك تقدم قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله...**»[2]، وشواهد هذا كثيرة في قصص الأنبياء وأخبارهم.

٥- **لأن التوحيد ينجي من المصائب**؛ قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ أَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

٦- **لأن الله أخذ الميثاق على بني آدم في تحقيق التوحيد**؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب زيادة الإيمان ونقصانه (٤٤)، ومسلم كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٢).

(٢) أخرجه البخاري كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٧٣٧١)، ومسلم كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩).

ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

٧- **لأن التوحيد هو ميثاق الله لجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام**؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧]، قال قتادة: «تقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية»[(١)].

٨- **أمر الله بالتوحيد الأمة التي قبلنا**؛ وأقربها إلينا أمة بني إسرائيل من يهود ونصارى كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣].

٩- **لأن التوحيد أصل الفطرة التي خلق الله بني آدم عليها**: قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه**»[(٢)]، وجاء في الحديث القدسي: «**إني خلقت عبادي حنفاء كلهم؛ وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم**»[(٣)].

١٠- **لأن التوحيد أصل صلاح الناس في الدنيا والآخرة**[(٤)]؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ٥].

هذه أبرز الأسباب للبدء بالتوحيد، والموضوع يحتاج لبحث أوسع من هذه العجالة.



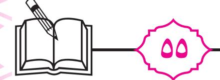
---

(١) للاستزادة انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٣٤٧)، معارج القبول (١/ ٩١ - ٩٧)، زاد المعاد (١/ ١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الجنة باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

(٤) للاستزادة انظر: الفتاوى الكبرى (١/ ٨٩)، منهاج السنة (٧/ ٢٩٠)، بدائع الفوائد (٣/ ٥٢٥).



المبحث الثاني

لماذا النهي عن الشرك؟

ورد عن النبي ﷺ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ [الأنعام: ٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله، فقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟! فقال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس بذلك!! ألا تسمع قول لقمان:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾»(١).

فنهى الله عباده عن الشرك لعدة أسباب:

١- **لأن الشرك بالله ظلم عظيم**؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ [يونس: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: ٢٥٤]. «وما أعظم وصف الشرك أنه ظلم عظيم، فأي ظلم أفظع من أن يخلقك الله وتعبد غيره، ويرزقك وتشكر غيره، ويسوق إليك النعم فتهب إلى غيره»(٢).

«وكون الشرك ظلم لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وكونه عظيما لما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه، ومن لا نعمة له»(٣).

٢- **ولأن الشرك بالله سبب في إحباط الأعمال وعدم قبولها**؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزمر: ٥٦].

٣- **ولأن الشرك بالله سبب في عدم مغفرة الذنوب والسيئات**؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء: ١١٦].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾ (٤٧٧٦). ومسلم كتاب الإيمان باب صدق الإيمان وإخلاصه (١٢٤).

(٢) من لطائف التفسير (ص١٠٥).

(٣) روح المعاني (٢١/ ٨٥).

٤- **الشرك بالله سبب للخلود في النار**؛ قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [فاطر: ٣٦].

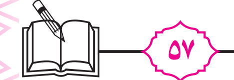
٥- **الشرك بالله أصل فساد الناس**؛ قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المطففين: ١٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ﴾ [النساء: ٨٨]، ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣] ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى: ٣٠][1].

٦- **الشرك سبب في إلقاء الرعب في قلوب أهله واجتيال الشياطين لهم**؛ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ ﴾ [مريم: ٨٣]، ﴿ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ﴾ [آل عمران: ١٥١].

وبعد أن بيَّن لقمان لولده أصل الاعتقاد ونهاه عن الشرك؛ أمره أن يقوم بالتكاليف الشرعية التي تدل على كمال اعتقاده وتكمل إيمانه بالله تعالى، فجاءت الوصايا الأخرى.



(١) للاستزادة انظر مدارج السالكين (٢/ ٢٥)، بدائع الفوائد (٣/ ٥٣٥)، تيسير العزيز الحميد (ص٥٠٣)، مجموع الفتاوى (١٥/ ١٢)، كتاب الفوائد لابن القيم (ص٨١).



الفصل الثالث

الوصية الثالثة: بالوالدين

المبحث الأول

الأخلاق والعقيدة

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

من هنا تبدأ الوصايا بأخلاق لا إله إلا الله. وهي قواعد ومنارات تطبيق التوحيد في الواقع، حيث أن الإيمان قول وعمل، فلا إيمان كامل بغير عمل، وهذا العمل إنما هو عبادات، ومن هذه العبادات الأخلاق الفاضلة، وهي عبارة عن: سلوكيات يتحلى بها ويعمل بها المسلم، حتى إذا ظهر أثرها عليه قيل هذا من أثر الإيمان الذي علمه وأقر به بلسانه وقلبه فظهر على جوارحه.

فهنا يوصي لقمان الحكيم ابنه بعد التوحيد، ببر والديه وخاصة الأم فالوصية في الآية عامة للوالدين، وفي تسمية الأم في الآية دليل على أن أمر الأم أشد في الوصية بالبر والإحسان.

فالأم هي التي لقيت الأمرَّيْن في حمله وهنًا على وهنٍ، أي: «جهدًا على جهدٍ، ضعفًا على ضعف»[١]. ثم بعد ذلك يأتي الإرضاع والفطام وما فيهما من مشقة وتعب.

ومناسبة الوصية بهما لما قبلها وجوب «الشكر: لله على نعمة الإيمان وللوالدين على نعمة التربية»[٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٣٦).

(٢) لقمان الحكيم وحكمه (ص١٦٠).

وفي الآيات تنبيه على عدة أمور:

١- أن الاهتمام بالوالدين هو شكر لله تعالى أولا على نعمة الأبوين وتربيتهما لولدهما.

٢- أن شكر الله يجب أن يسبق شكر المخلوقين.

٣- أن كل أخلاقيات الإسلام هي ميثاق بين الإنسان وبين الله مباشرة، فهي تصل للآخرين من خلال صلة الإنسان بالله، فأخلاقيات الإنسان نحو والديه - وهي البر بهما - تصل إلى الوالدين من خلال شكر الإنسان لربه وعبادته، وكذلك أخلاقيات أي أمر من الأمور، فالصدق أمر من الله أولا ثم هو تعامل جيد مع الناس، والوفاء بالعهد هو أمر من الله أولا ثم تعامل مع الناس.

«فالعقيدة لا بد أن تنعكس على الإنسان وسلوكه، فإذا آمن المسلم إيمانا يقينيا بالله سبحانه، وبعلمه وبمراقبته؛ كان هذا الإيمان محددًا لسلوكه كفرد، وسلوك الجماعة كأمة»[(١)].

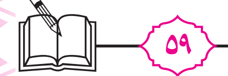
فالبر عبادة، والصدق عبادة، والوفاء بالعهد عبادة، وكل الأخلاق الإسلامية عبادة لله تعالى لا تصل إلى الناس إلا عن طريق الإيمان بالله تعالى، وذلك بعبادته سبحانه بهذه الأخلاق والتعامل بها بين الناس.

٤- أن هذا البر يكون في كل شيء، إلا إذا أمراه والداه بالشرك، أو معصية الله: فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾.

٥- هذا البر يكون حتى للأبوين الكافرين، فالاختلاف في العقيدة والأمر بعدم الطاعة في معصية الله، لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الحسنة الطيبة والصحبة الكريمة، قال تعالى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾. وعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «أنزلت فيّ هذه الآية: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾ قال: كنت

---

(١) معالم أصول التربية من خلال وصايا لقمان - عبد الرحمن الأنصاري - (ص٤٤٣).



رجلًا بارًّا بأمي فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعنَّ دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي؛ فيقال: يا قاتل أمه!! فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء. فمكثت يوما وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوم وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفسًا نفسا، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلى، وإن شئت لا تأكلي، فأكلت»(١).

٦- «والآية هنا نبهت على أن الصحبة في الدنيا بالمعروف، فلا يجوز أن يبرهما باستغفار في حياتهما، ولا بعد موتهما، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣﴾ [التوبة: ١١٣]»(٢).

٧- وفي الآية النهي عن صحبة الكفار والفساق، والترغيب في صحبة الصالحين، فالإتباع والولاء يكون للمؤمنين خاصة، ولمن أخلص لله التوحيد، ثم يوم القيامة يجازي الله سبحانه كل على عمله، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

ولعظم الأمر ببر الوالدين سنلقي الضوء على بعض حقوق الوالدين وآداب التعامل معهما.



(١) أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٠٣٦) (١٧١٦٤)، وانظر: أسد الغابة - ابن الأثير (٢/ ١٢٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٣٧).

(٢) موضوعات سور القرآن - سورة لقمان - (ص٢٢).

المبحث الثاني

فضل بر الوالدين وأهميته

تبرز أهمية بر الوالدين من خلال الآيات في النقاط التالية:

١- تكرار الأمر ببرهما وتقديمها بعد حق الله تعالى:

وذلك في مواضع كثيرة من القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: ١٥].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أمك**» قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»[(١)].

وجاء رجل إلى رسول الله يستأذنه في الجهاد فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَحَيٌّ والداك؟**» قال: نعم. فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ففيهما فجاهد**»[(٢)].

وقد تكررت النداءات في القرآن والسنة بالوصية بالوالدين، ولم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا، وذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه، فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ لضمان امتداد الحياة كما يريدها الله تعالى، وإن الأبوان ليبذلان لأولادهما من أجسامهما وأعمارهما وأعصابهما ومن كل ما يملكان من عزيز وغال، من

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب من أحق الناس بحسن الصحبة (٥٩٧١). ومسلم كتاب البر والصلة باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٢٥٤٨).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب لا يجاهد إلا بإذن والديه (٥٩٧٢). ومسلم كتاب البر والصلة باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٢٥٤٩).

غير تأفف ولا شكوى، بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلانه. وأما الوليد فهو في حاجة للوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المُدبِر بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى المستقبل.

٢- أن بر الوالدين من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

قال تعالى مادحًا يحى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٤]، وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [مريم: ٣٢]، وقال تعالى: حاكيا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧]، وذكر الله تعالى دعاء نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح: ٢٨].

٣- لفت النظر إلى المشقة التي يبذلها الأبوان:

فالأم حملت الطفل في بطنها تسعة أشهر تنال فيها مشقةً على مشقةٍ كما في الآية هنا: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾ وفي موضع آخر: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥].

فقد حملته ولا يزيدها نموه في أحشائها إلا ثقلًا وضعفًا، وتكديرًا عليها في طعامها وشرابها ومنامها، وعند الولادة ترى الموت بعينها، ولكن ما أن ترى طفلها بجانبها إلا وهي قد نسيت كل آلامها، ثم بعد ذلك جندت نفسها لخدمته ورعايته، تضمه إلى صدرها وتغذيه من صحتها، وتقدم راحته على راحتها، وتحوطه بعنايتها ورعايتها، فطعامه درها، وبيته حِجْرُها، ومركبه يَدُها وصَدْرها وظَهْرُها، تصبر على صراخه وبكائه، وتغسل عنه أذاه، وتحن إليه وتهواه، تجوع ليشبع هو، وتسهر لينام هو، وتتعب ليستريح هو، وهي على ذلك مدى الحياة.

أما الأب فكم تعب من أجل ابنه، وكم سعى واجتهد في تحقيق مصلحته، يكد ويكدح، وينتقل في الأسفار، ويتحمل الأخطار، من أجل راحته وتأمين مستقبله، يبذل

الكثير من وقته وجهده من أجل رعايته وتربيته، كما في الآية: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ١٤].

وفي الرعاية أيضًا: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

إن حق الوالدين عظيم وفضائلهما لا تعد ولا تحد، وحبهما لولديهما هو أصدق الحب ونصحهما هو أنفع النصح.

٤- النظر إلى الأجر العظيم والثواب الكبير على بر الأبوين:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**رضى الرب في رضى الوالد وسخط الرب في سخط الوالد**»[١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله «قيل: ثم ماذا؟ قال: «بر الوالدين «قيل: ثم ماذا؟ قال «الجهاد في سبيل الله»[٢].

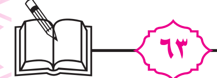
وأيضا قول النبي ﷺ «**رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف**» قيل من يا رسول الله؟ قال «**من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة**»[٣]. وغيرها من النصوص الدالة على عظم أجر بِرِّ الوالدين.



(١) أخرجه الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء من الفضل في رضى الوالدين (١٨٩٩). وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٥٤٩).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الحج باب فضل الحج المبرور (٥١٩). ومسلم باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥).

(٣) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والأدب باب رغم انف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة (٢٥٥١).



المبحث الثالث

حقوق الأبوين

للأبوين حقوقٌ كثيرةٌ جدًا نجمل أهم تلك الحقوق في نقاط:

١- **الإحسان إليهما بالقول والفعل**: قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء: ٢٣]. أي: لا تظهر لهما التأفف والتبرم منهما ولا ترفع صوتك عليهما وقل لهما قولا لينا لبقا لطيفا.

٢- **التواضع لهما**: قال تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]

أي: تواضع لهما بفعلك رحمة بهما وتذللًا لهما.

٣- **الدعاء لهما في حياتهما وبعد مماتهما**: قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٤]. يقول النبي ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»(١)، «فادع الله لوالديك بالرحمة، وقل رب ارحمهما، وتعطف عليهما بمغفرتك ورحمتك كما تعطفا علي في صغري، فرحماني وربياني صغيرًا»(٢).

٤- **طاعتهما في المعروف**: والدليل على ذلك كثرة الأدلة الآمرة بطاعة الأبوين، وقول الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾. «فقد دلت الآية على وجوب طاعة الأبوين بالمعروف من وجهين:

أ- أنه تعالى نهى عن طاعتهما فيما يأمران به ولدهما من معصية الله تعالى والإشراك به. فدل ذلك على أنهما إذا أمراه بشيء لا معصية فيه وجب عليه طاعتهما.

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١).

(٢) جامع البيان (١٥/ ٥٠).

ب- أنه أمر الولد بمصاحبة والديه بالمعروف ولو كانا يجاهدانه على الشرك، وليس من المصاحبة بالمعروف عصيان أمرهما والخروج عن طاعتهما»[١].

ومن وجوب طاعة الوالدين أن الجهاد في سبيل الله - إذا لم يكن فرض عين - فإنه لا يصلح ولا يجوز الخروج إليه إلا بإذن الوالدين، «فمن كان أحد أبويه مسلما لم يجز له الجهاد تطوعا إلا بإذنه، روي ذلك عن عمر وعثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وبه قال مالك والأوزاعي، والثوري والشافعي وسائر أهل العلم... لأن بر الوالدين فرض عين، والجهاد فرض كفاية، وفرض العين يقدم»[٢] ولحديث «**ففيهما فجاهد**» المتقدم.

٥- **الاستغفار لهما بعد موتهما**: قال تعالى حكاية عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وفي الحديث: «**أو ولد صالح يدعو له**»[٣]. وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هل بقي من بر أبواي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: «**نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما بعد موتهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما**»[٤].

٦- **إنفاذ عهدهما**: وذلك بتنفيذ وصيتهما بعد موتهما والاستمرار على الشيء الذي كانا عليه من أعمال البر والخير، كما جاء في الحديث السابق «**وإنفاذ عهدهما**».

٧- **صلة الرحم التي لا توصل إلا بهما**: وذلك بصلة الأرحام التي من طرفهما: كالأعمام والعمات والأخوال والخالات، والأجداد والجدات، وأولادهم، لقوله ﷺ:

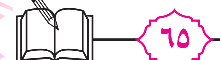
---

(١) فقه التعامل مع الناس (ص٢٥٠).

(٢) المغني (١٣/ ٢٥).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب في بر الوالدين (٥١٤٢)، وسكت عنه، وقد قال في رسالته لأهل مكة: «وكل ما سكتّ عنه فهو صالح». وقال عنه ابن باز: ثابت. مجموع فتاوى ابن باز (٣٥/ ٣٧٢، ١٣/ ٢٥٣) وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٢/ ٧٢) (١٤٨٢) والسلسلة الضعيفة (٥٩٧).



«**إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه بعد أن يولى**»[١]. وقوله عليه السلام: «**وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما**».

٨- **إكرام صديقهما**: كما في الحديث «**وإكرام صديقهما**».

هذه ومضة سريعة على بعض حقوق الوالدين وهناك آداب وواجبات أخرى تنبثق من هذه الآداب والواجبات لم نذكرها اختصارًا[٢].



(١) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة باب فضل صلة أصحاب الأب والأم ونحوهما (٢٥٥٢).

(٢) للاستزادة حول هذا الموضوع انظر كتاب فقه التعامل مع الناس د. الفوزان، وكتاب الآداب لعبد العزيز الشلهوب، وكتاب الآداب الإسلامية لعبد العزيز نداء، وغيرها من كتب الآداب.

الفصل الرابع

الوصية الرابعة: استشعار رقابة الله ﷻ

المبحث الأول

الرقابة من خلال الآية

قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾.

«إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة من خردل أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السماوات والأرض فإن الله يأت بها لأنه لا تخفى عليه خافية»[١].

«وفي التعبير بلفظ الصخرة والسماوات والأرض بيان أن هذا الشيء الحقير وهو غاية في الصغر؛ لو كان في أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة، أو أبعد مكان في السماء، أو أظلم مكان في جوف الأرض يأت به الله سبحانه»[٢].

فهنا يوصي لقمان الحكيم ابنه بتقوى الله عن طريق ضرب المثل فيقول له إن أصغر الأشياء وأحقرها إذا كانت في وسط الصخرة أو في السماوات أو الأرض يأت بها الله من سعة علمه وتمام خبرته.

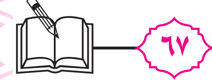
«والمقصود من هذا: الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته، مهما أمكن والترهيب من عمل القبيح قَلّ أو كثر»[٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٣٧).

(٢) روح المعاني (٢١/ ٨٨) بتصرف.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (ص٥٩٧).



المبحث الثاني

الشواهد على المراقبة من الكتاب والسنة

المراقبة هي: «دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق ﷻ على ظاهره وباطنه»(١).

والمعنى: أي عمل، سواء كان كبيرًا أو صغيرًا، مهما كان حجمه، ومهما خفي عن أعين الناس، فإن الله يعلمه؛ فقدرة الله فوق كل شيء، فانتبه أن تعمل شيئًا وأنت تظن أن الله لا يعلمه. كما قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨].

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٤٩﴾ [الكهف: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩﴾ [الشعراء: ٢١٩ - ٢٢٠]. وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩].

وقد ورد أن النبي ﷺ قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(٢)، «أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة فإن من راقب الله أحسن عمله»(٣).

وفي قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار يتضح هذا المعنى جليًا، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالًا عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها، لعل الله يفرجها عنكم.**

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٦٨).

(٢) كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة، أخرجه البخاري كتاب الإيمان باب سؤال جبريل النبي.. (٥٠) و(٤٤٩٩)، ومسلم كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨ - ١٠).

(٣) لسان العرب (١١٥ - ١١٧).

فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران وامرأتي ولي صبية صغار، أرعى عليهم، فإذا أرحت عليهم[١] حلبت فبدأت بوالدي فسقيتهما قبل بني، وأنه نأى بي ذات يوم الشجر، فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون[٢] عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منه فرجة نرى منه السماء، ففرج الله منه فرجة فرأوا منها السماء.

وقال الآخر: اللهم إنه كان لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال من النساء، وطلبت إليها نفسها، فأبت، حتى آتيها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها، فلما وقعت بين رجليها قالت: يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه[٣] فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة، ففرج لهم.

وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيرًا بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا ورعائها، فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي، فقلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها، فقال: اتق الله ولا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، خذ ذلك البقر ورعائها، فأخذه فذهب به، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي ففرج الله ما بقي»[٤].

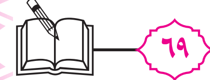


(١) أرحت عليهم: أي إذا رددت الماشية من المرعى إليهم.

(٢) يتضاغون: أي يصيحون ويستغيثون من الجوع.

(٣) لا تفتح الخاتم إلا بحقه: الخاتم كناية عن بكارتها، وقوله بحقه: أي بنكاح لا بزنا.

(٤) أخرجه البخاري كتاب البيوع باب إذا اشترى شيئًا لغيره بغير اذنه (٢١٠٢) و(٢١٥٢، ٢٢٠٨، ٣٢٧٨، ٥٦٢٩)، ومسلم كاب الذكر والدعاء باب قصة أصحاب الغار والتوصل بصالح الأعمال (٢٧٤٣) واللفظ له.



المبحث الثالث

آثار وأقوال العلماء في المراقبة

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عليك بالمراقبة ممن لا يخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء»[١].

وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر؟ فقال: «بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه»[٢].

قال الحسن: «رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر»[٣].

وقيل: «من راقب الله في خاطره عصمه في حركات جوارحه»[٤].

وكان الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يردد ويقول:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل ... خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة ... ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
غفلنا لعمر الله حتى تداركت ... علينا ذنوب بعدهن ذنوب
فيا ليت أن الله يغفر ما مضى ... ويأذن في توباتنا فنتوب[٥]

وقال أبو محمد الأندلسي:

إذا ما خلوت بريبة في ظلمة ... والنفس داعية إلى العصيان

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٩٧).

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٥٨) (٧٢٧٩)، وشرحه ابن القيم في إغاثة اللهفان (١/ ٨١).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٩٦).

(٥) رواها البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٤٦١)، وذكر أن الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يرددها، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٢٢٠) وذكر أن الإمام أحمد بن حنبل رددها.

فاسـتح مـن نظـر الإلـه وقـل لهـا إن الـذي خلـق الظـلام يرانـي[١]

«فينبغي للإنسان أن يراقب نفسه قبل العمل وفي العمل، هل حَرَّكَه عليه هوى النفس؟ أو المحرك له هو عبادة الله تعالى؟ فإن كان لله أمضاه، وإلا تركه، وهذا هو الإخلاص»[٢]. وذلك لكي يجدد النية وتكون خالصة لله تعالى.

فالمراقبة في أثناء العمل: هي الاستمرار على الإخلاص لله تعالى، وإتقان العمل، وفق منهج القرآن والسنة.

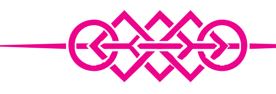
«فهذه مراقبة العبد في طاعة الله، وهو أن يكون: مخلصا فيها.

ومراقبته في المعصية تكون: بالتوبة والندم والإقلاع.

ومراقبته في المباح تكون: بمراعاة الأدب والشكر على النعم.

فإن العبد لا يخلو من نعمة لا بد لها من الشكر عليها، ولا يخلو من بلية لا بد من الصبر عليها وكل ذلك من المراقبة»[٣].

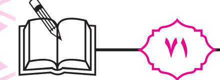
إن العبد يجب أن يراقب الله وهو يفكر ويحس، فالله يعلم السر وما أخفى، ويراقب الله فينظف مشاعره أولًا بأول، ولا يحسد ولا يحقد، ولا يكره للناس الخير، ولا يشتهي الشهوات الباطلة والمتاع الدنس، وحين توجد في القلب هذه الحساسية المرهفة تجاه الله تستقيم النفس ويستقيم المجتمع، ويعيش المجتمع بعيدًا من الجريمة، بعيدًا عن الدنس، خاليًا من الأحقاد، لأنه لا يتعامل في الحقيقة مع بعضه البعض؛ وإنما يتعامل مع الله تعالى أولًا.



(١) ذكر هذا البيت القحطاني في نونيته.

(٢) منهاج القاصدين (ص٣٧٣).

(٣) المصدر السابق.



المبحث الرابع

فوائد المراقبة

١- «الفوز بالجنة والنجاة من النار.

٢- الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة.

٣- دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.

٤- تثمر محبة الله تعالى ورضاه.

٥- دليل على حسن الخاتمة.

٦- مظهر من مظاهر صلاح العبد واستقامته»[(١)].

فيا لها من وصية عظيمة الشأن! وهي أن يستشعر الإنسان دوما جلالة الله وقدرته وعلمه بكل شيء، لأن الإنسان عندما يستشعر ذلك يزداد خوفه من الله، واستحياؤه من الله، فلا يجده حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، وبذلك تأتي تقوى الله تعالى، التي هي من ثمار استشعار رقابة الله سبحانه.

وباختصار: فإن المراقبة هي من أعلى مراتب الدين، وهي داخلة تحت مرتبة الإحسان، وهي: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[(٢)][(٣)].



---

(١) نضرة النعيم (٨/ ٣٣٧٢).

(٢) كما ورد في الحديث عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (تقدم تخريجه).

(٣) للاستزادة عن المراقبة أنظر: مختصر منهاج القاصدين (ص٣٧٤ - ٣٨٠)، سلسلة أعمال القلوب للمنجد (ص٢٥٧ - ٢٨٠)، باب المراقبة من رياض الصالحين، نضرة النعيم (٨/ ٣٣٦٧ - ٣٣٧٢).

الفصل الخامس

الوصية الخامسة: الوصية بإقامة الصلاة

قال تعالى عن لقمان ووصيته لابنه: ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

أمرٌ بإقامة الصلاة بكل ما تشمله من أركان وواجبات، **وإقامتها**: في وقتها، في جماعة المسجد، والسعي إليها بأدب، وتسوية الصفوف، والخشوع. «إقامتها: بحدودها وفروضها وأوقاتها»[(١)].

ولعظيم وصية لقمان لابنه بالصلاة كان واجبا أن نوضح بعض الأسباب التي جعلت لقمان يوصي ابنه بالصلاة.



المبحث الأول

فضل إقامة الصلاة وأهميتها

دلت الأدلة من القرآن والسنة على فضل الصلاة وأهميتها:

١- **الصلاة هي أحد أركان الإسلام العملية**؛ قال رسول الله ﷺ: «**بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان**»[(٢)].

٢- **وهي من السمات التي تتسم بها هذه الأمة من حيث الاهتمام**: حيث جعلها الشارع مدار قبول باقي الأعمال الأخرى، وهي كما قال رسول الله ﷺ: «**أول ما يحاسب**

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٣٨).

(٢) أخرجه البخاري كتب الإيمان باب قول النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس) (٨). ومسلم كتاب الإيمان باب أركان الإسلام ودعائمه العظام (١٦).

به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر»[١].

٣- **أمر الله بالمحافظة عليها مهما كانت الظروف**: في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والصحة والمرض، وفي كل حال. قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: ٢٣٩].

٤- **الصلاة أعظم سبب في تقويم حياة الناس**: في سلوكهم ومعاشهم، وتقويم ما يقعون فيه من انحراف كما قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: ١٣٢].

٥- **بالصلاة يمحو الله الخطايا**؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**»[٢].

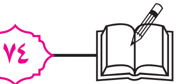
٦- **الصلاة دليل على صدق الإيمان**؛ قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ [المؤمنون: ١ - ٢]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٣ - ٤].

٧- **في الصلاة إعانة على مقاومة الجزع والهلع**؛ وذلك عند مس الضر، والمنع عند

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب قول النبي صلى الله عليه وسلم (كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه) (٨٦٤)، وابن ماجة كتاب إقامة الصلاة باب أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ح (١٤٢٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

(٢) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨)، ومسلم كتاب المساجد باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات (٦٦٧).



الخير، والتغلب على جوانب الضعف الإنساني. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٣].

٨- **رتب الله الأجور الكثيرة لكل عبد يهتم بالصلاة**؛ فرتب الأجر على:

- **إسباغ الوضوء**، فقال ﷺ «**من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره**»[١].

- **والصلاة في المسجد**، قال رسول الله ﷺ: «**صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة**»[٢].

- **والمشي إلي الصلاة**، قال ﷺ: «**ألا أدلكم على ما يمحوا الله به الخطايا ويرفع الله به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطَى إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط**»[٣].

- **والتبكير إلى الصلاة، والصف الأول**، قال ﷺ: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه**»[٤].

- **والسنن الرواتب**، قال ﷺ: «**ما من عبد مسلم يصلي لله تعالى كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعا غير الفريضة إلا بنى الله له بيت في الجنة**»[٥]. وغيرها من الأجور.

٩- **جعل الله تعالى الأجر الكبير على بعض الصلوات**؛ وذلك لما فيها من المشقة،

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء (٢٤٥).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب فضل صلاة الجماعة (٦٤٥). ومسلم كتاب المساجد باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها (٦٥٠).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب فضل التهجير إلى الظهر (٦٥٣). ومسلم كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها، والازدحام على الصف (٤٣٧).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب فضل السنن الرواتب قبل الفرائض وبعدهن، وبيان عددهن (٧٢٨).

يختبر الله بها عباده؛ كصلاتي العصر والفجر، وصلاة العشاء، فعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صلى البردين دخل الجنة**»(١) وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما؛ ولو حبوا**»(٢).

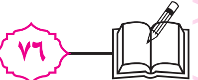
١٠- **ترك الصلاة من الأمور العظيمة في مخالفة أمر الله؛** قال تعالى عن الكفار واعترافهم يوم القيامة: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المدثر: ٤٢]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**»(٣).



(١) أخرجه البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب فضل صلاة الفجر (٥٤٧). ومسلم كتاب المساجد باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٦٣٥).

(٢) أخرجه البخاري كتاب الجماعة والإمامة باب فضل العشاء في جماعة (٦٢٦) و(٦١٨و٦٢٤).

(٣) أخرجه الترمذي كتاب الإيمان باب ترك الصلاة (٢٦٢٣) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢١١٣)، وصحيح سنن ابن ماجة (١٠٧٩).



المبحث الثاني

أقسام الناس في الصلاة

والناس في الصلاة على مراتب خمسة[(١)]:

١- مصلٍ مفرط ظالم لنفسه: وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها وخشوعها، فهذا تسقط عنه الفريضة، ويأثم لتفريطه.

٢- مصلٍ يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار فهو مضيع للخشوع، فهذا له من صلاته ما عقل منها.

٣- مصلٍ يحافظ على حدودها وأركانها، ويجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاةٍ وجهادٍ، فهذا له أجران: أجر المجاهدة، وأجر الصلاة.

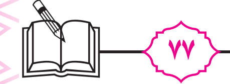
٤- مصلٍ إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها، لئلا يضيع شيء منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي، وإكمالها وإتمامها قد استغرق قلبه شأن الصلاة، وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها، فهذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿ يَـٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وكذلك قول الرسول ﷺ: «**ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يأت كبيرة، وذلك الدهر كله**»[(٢)].

٥- مصلٍ إذا قام إلى الصلاة؛ قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ﷻ، ناظرًا بقلبه إليه، مراقبًا له، ممتلئًا من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد

---

(١) الوابل الصيب (ص٣٨).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (٢٢٨).

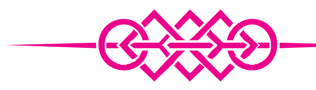


اضمحلت تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه ﷻ قرير العين به.

وهذه المرتبة قال عنها رسول الله ﷺ: «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»(١)، وقال ﷺ: «**يا بلال؛ أرحنا بالصلاة**»(٢).

وكان علي بن الحسين رحمهما الله من النماذج في ذلك فقد روي عنه أنه كان «إذا توضأ اصفرَّ وتغير، فيقال له: ما لك؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم!!؟»(٣).

قال ابن القيم بعد ذكره تلك المراتب: «فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه؛ لأن له نصيبا ممن جعلت قرة عينه في الصلاة، فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه ﷻ في الآخرة، وقرت عينه أيضا به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله؛ قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تعالى؛ تقطعت نفسه على الدنيا حسرات»(٤).



---

(١) أخرجه النسائي كتاب عشرة النساء باب حب النساء (٣٩٤٠). وأحمد في المسند (٣/ ١٢٨) (١٢٢٩٣ - ١٢٢٩٤). وصححه الحاكم على شرط مسلم (٢/ ١٧٤) (٢٦٧٦). سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٤٢٤) (١٨٠٩).

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الأدب باب صلاة العتمة (٤٩٨٥). وأحمد في المسند (٥/ ٣٦٤) (٢٣٠٨٨). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢)، والطبراني في الكبير (٦٢١٤).

(٣) مختصر منهاج القاصدين (ص٢٧٣).

(٤) الوابل الصيب (ص٣٨).

المبحث الثالث

أمور عملية معينة على إقامة الصلاة

مما يعين على القيام بالصلاة على وجهها أمورٌ:

١- الاستعانة بالله تعالى على إقامة الصلاة.

٢- الإخلاص لله تعالى في الصلاة.

٣- الإقلاع عن الذنوب.

يذكر السلف رحمهم الله تعالى: «أن العبد يُحرم لذة الطاعة بالذنب يصيبه»[(١)].

ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب... فليوازن العبد بين لذة الذنب ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه وفوت حسن جزائه وجزيل ثوابه وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلا وفرحة ما يثنيه عليه في دنياه وآخرته والله المستعان»[(٢)].

وقال: «ومن آثار الذنوب حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يَصُدَّ عن طاعةٍ تكون بدله وتقطع طريق أخرى، فينقطع عليه بالذنب ثالثة، ثم رابعة، وهلم جَرًّا، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كالرجل: أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها. والله المستعان»[(٣)].

وقال: «الذنوب تضعف سير القلوب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو توقفه أو

---

(١) لم أصل لقائل هذه المقولة، ولكن العلماء يتناقلوها، وانظر فيض القدير (١/ ١١٩) (١٣٣)، وانظر ما قاله ابن القيم في الجواب الكافي (١/ ٥٤ - ١٠٧)، وابن الجوزي في صيد الخاطر (ص٣٩٤)، وفي الحديث: (إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه) وهو ضعيفٌ. والله أعلم.

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص٢٦٣).

(٣) الجواب الكافي (ص١٤٣).

تقطعه عن السير، فلا تدعه يخطو إلى الله خطوة، وهذا إن لم ترده عن وجهته إلى الوراء، فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعًا يبعد تداركه»(١).

وقال وهب بن الورد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقد سئل: «أيجد لذة الطاعة من يعصي؟ فقال: ولا من هَمَّ»(٢).

٤- **المحافظة على الصلاة في وقتها**: قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾ [النساء: ١٠٣].

٥- **الاستعداد النفسي للصلاة**: وذلك بانتظار الصلاة بعد الصلاة كما قال عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «**ألا أدلكم على ما يمحوا الله به الخطايا ويرفع الله به الدرجات؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «**إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط**»(٣).

٦- **الترديد مع الأذان**: كما ورد عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا سمعتم النداء فقولوا كما يقول المؤذن**»(٤).

٧- **الذكر بعد الأذان**: ثم يقول الدعاء الذي رواه جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته، حلت**

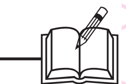
---

(١) الجواب الكافي (ص١٨٩).

(٢) صيد الخاطر (ص٥٠).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب ما يقول إذا سمع المنادي (٦١١). ومسلم كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل ما يقول المؤذن (٣٨٣).



له شفاعتي يوم القيامة»[١].

٨- **إسباغ الوضوء على المكاره**: والوضوء ليس طهارة للبدن فحسب؛ ولكنه طهارة للروح أيضا من المعاصي والذنوب؛ ولذلك قال ﷺ: «**من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره**»[٢].

٩- **الذكر بعد الوضوء**: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شرك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**»[٣]، وزاد الترمذي «**اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**»[٤].

١٠- **لبس ثياب حسنة نظيفة**: قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾ [الأعراف: ٣١]. قال ابن رجب رحمه الله: «واعلم؛ أن الصلاة في الثوب الحسن غير مكروه، إلا أن يخشى منه الإلتهاء عن الصلاة أو حدوث الكبر، وقد كان النبي ﷺ أحيانًا يلبس حللًا من حلل اليمن، وبرودًا حسنة، ولم ينقل عنه أنه كان يتجنب الصلاة فيها، وإنما ترك هذه الخميصة لما وقع له من تلك النظرة إلى علمها»[٥].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «الله أحق أن يتزين له»[٦]، وقد كان لتميم الداري رضي الله عنه حُلَّةً اشتراها بألف درهم، يقوم بها الليل[٧].

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأذان باب الدعاء عند الأذان (٦١٤).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب وجوب استيعاب جميع أجزاء محل الطهارة (٢٤٥).

(٣) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٢٣٤).

(٤) أخرجه الترمذي كتاب الطهارة باب فيما يقال بعد الوضوء (٥٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي، وصحيح سنن ابن ماجة (٤٧٠).

(٥) شرح ابن رجب على البخاري (٣/ ٦٣) كتاب الصلاة باب وجوب الصلاة في الثياب.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١٣٩١) والطبراني في الكبير (٤٥٠) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٥١): رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن، وصححه الألباني مرفوعًا في الصحيحة (٣/ ٣٥٦/ ١٣٦٩).

(٧) أخرجه أحمد في الزهد (١١١٧)، ومختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي: باب الاغتسال لقيام الليل والتطيب ولبس الثياب الحسنة (١٠٨).

١١- **الذهاب إلى المسجد ماشيًا:** قال ﷺ: «**ألا أدلكم على ما يمحوا الله به الخطايا ويرفع الله به الدرجات؟**»... «**وكثرة الخطى إلى المساجد**»، وقال ﷺ: «**من تطهر في بيته، ثم مضى إلى بيت من بيوت الله، ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداها تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة**»(١).

١٢- **دخول المسجد بالرجل اليمنى، ودعاء دخول المسجد:** ومنه الوارد: «**بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم افتح لي أبواب رحمتك**»(٢).

«وكان ابن عمر يبدأ برجله اليمنى فإذا خرج بدأ برجله اليسرى»(٣).

١٣- **الصلاة في الصف الأول:** لقوله ﷺ: «**لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه**»(٤).

١٤- **سنة رفع اليدين في مواضع:** فإذا دخل الإنسان في صلاته وقال الله أكبر ورفع يديه حذو منكبيه، استشعر أنه يرمي هذه الدنيا خلف ظهره، وهو يقول الله أكبر من المال والأولاد والزوجة والدنيا كلها، والله أكبر من كل شيء.

فعن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ كان يرفع يديه حذو منكبيه إذا افتتح الصلاة وإذا كبر للركوع وإذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك أيضا وقال: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد. وكان لا يفعل ذلك في السجود»(٥).

١٥- **استشعار الأقوال والحركات في الصلاة في العبودية لله:** فيقف المصلى وهو

---

(١) أخرجه مسلم كتاب المساجد باب المشي إلى الصلاة تمحى به الذنوب وترفع به الدرجات (٦٦٦).

(٢) أخرجه ابن ماجة كتاب المساجد باب الدعاء عند دخول المسجد (٧٧٣).

(٣) أخرجه البخاري كتاب المساجد باب التيمن في دخول المسجد وغيره معلقًا.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري كتاب صفة الصلاة باب رفع اليدين في التكبيرة (٧٠٢و٧٠٣و٧٠٥و٧٠٦). ومسلم كتاب الصلاة باب استحباب رفع اليدين حذو المنكبين.. (٣٩٠).

يستشعر أنه واقف أمام الله تعالى، واضعا يده اليمنى على اليسرى تأدبًا معه سبحانه، عينه على موضع سجوده، إظهارا للخشية، والحياء من الله أن يرفع رأسه والله تعالى ينظر إليه[١].

ثم يستفتح لقائه مع الله ﷻ، ثم يقرأ الفاتحة ويستشعر أن الله يناجيه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: الرحمن الرحيم. قال الله تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قال: مالك يوم الدين. قال: مجدني عبدي. وقال مرة: فوض إلي عبدي. فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل**»[٢].

ثم يرفع يديه مكبرًا للركوع بين يدي الله لإظهار الذل والمسكنة لله تعالى، ثم يعظمه بما أمر، ثم يرفع من ركوعه رافعًا يديه مناديًا بالسمع والطاعة والحمد لمولاه، ثم يأتي مظهرٌ أشد في إظهار الذلة لله وهو السجود ويكون مرتين تأكيدًا لكمال للذل والعبودية لله تعالى.

وهكذا كل عمل من أعمال الصلاة على المصلي أن يستشعره ولا يجعله حركات جوفاء ليس لها أي معني عنده وهو يصلي.

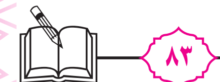
وكذلك أذكار الصلاة كلها[٣]، من التكبير إلى التسليم، على المصلي أن يستشعر هذه

---

(١) انظر كتاب صفة صلاة النبي ﷺ للشيخ الألباني (٨٩)، فقد ذكر عدة روايات في ذلك منها: (كان ﷺ إذا صلى طأطأ رأسه ورمى ببصره نحو الأرض) صحيح ابن خزيمة والحاكم وصححه، و(لما دخل الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها) البيهقي والحاكم وصححه. وقال ﷺ: (لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي) أبو داود وأحمد بسند صحيح، و(كان ينهى عن رفع البصر إلى السماء (البخاري وأبو داود.

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).

(٣) يمكن الرجوع إلى أذكار الصلاة كاملة من كتب السنة والفقه لأن المجال لا يتسع لذكرها.



الأدعية، ويربطها بالذل لله، والفقر والاحتياج إليه، وإلى مغفرته وعفوه ورحمته ﷻ[(١)].

وإذا قام العبد المصلي بهذا، وجاهد نفسه على القيام بكل أركان الصلاة وواجباتها وسننها وخشوعها؛ أحس بعد ذلك بقول الرسول ﷺ لبلال: «**أرحنا بالصلاة يا بلال**»[(٢)] وبقوله ﷺ «**وجعلت قرة عيني في الصلاة**»[(٣)].

وبإقامة الصلاة يصلح سلوك العبد وعمله أيضًا؛ قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وفي الحديث: «**إذا صلحت صلح سائر العمل، وإذا فسدت فسد سائر العمل**»[(٤)].



(١) أشار الإمام ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين إلى هذه الأمور المعينة على الصلاة إجمالاً (٣١ - ٣٥).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخرجه.

(٤) تقدم تخريجه.



المبحث الرابع

المثل التطبيقي من حياة النبي ﷺ في الخشوع في الصلاة

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: «**وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك، وإذا ركع قال اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي**».

وإذا رفع قال: «**اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد**».

وإذا سجد قال: «**اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين**».

ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: «**اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت**»[١].

وسئل ابن عباس رضي الله عنه عن استسقاء رسول الله ﷺ فقال: «إن رسول الله ﷺ خرج متبذلا[٢] متواضعا متضرعا حتى أتى المصلى فلم يخطب خطبتكم هذه، ولكن لم يزل في

(١) أخرجه مسلم كتاب الصلاة باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١).

(٢) التبذل: ترك التزين والتهيؤ بالهيئة الحسنة الجميلة وذلك على جهة التواضع.

الدعاء والتضرع والتكبير، وصلى ركعتين كما كان يصلي في العيد»[١]، وعن مطرف عن أبيه قال: «رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء ﷺ»[٢].



---

(١) أخرجه الترمذي أبواب السفر باب ما جاء في صلاة الاستسقاء (٥٥٨) واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن صحيح. وابن ماجة كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في صلاة الاستسقاء (١٢٦٦)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجة.

(٢) أخرجه أبو داوود أبواب الإمامة باب البكاء في الصلاة (٩٠٤) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

الفصل السادس

الوصية السادسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تمهيد:

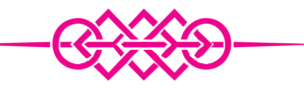
قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

بعد أن وصى لقمان ابنه بالصلاة تكميلا لإيمانه، أمره أن يقوم بالسعي على تكميل إيمانه وإيمان غيره، بالأمر بالمعرف والنهي عن المنكر في كل شيء، سواء الأمر بالتوحيد، أو الأمر بمراقبة الله تعالى، أو الأمر بالصلاة، أو الأمر بالصفات التي - سيأتي بيانها - فيها كمال لشخصية المسلم وقبل ذلك كمال لإيمانه. والنهي عن كل ما ينافي ويبعد عن الإيمان بالله تعالى.

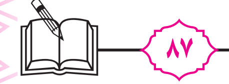
«والأمر المعروف والنهي عن المنكر شعار الجماعة الناجية، وإذا فُقِدَ من أمةٍ من الأمم فُقِدَ منها صفات الخير، وهو واجبٌ على كل واحدٍ لكل أحدٍ.

وهو أثرٌ من آثار الإيمان، وأثرٌ من آثار حب الفضيلة، وأساسٌ من أسس صلاح المجتمع، وهو يوقظ الشعور وينبه الضمير، ويخيف المقدم على المنكر، وإذا تضامن الناس في ذلك كما هو الواجب شرعًا ووجد تضامنٌ من الناس على الفضيلة - وهي فعل المعروف - فلا تضيع الفضيلة بينهم، ووجد تضامنٌ على استنكار الرذيلة فلا توجد بينهم»[1]، فإن الفضيلة تنموا وترتقي بالإنسان عن الأنانية والحيوانية.

ولبيان هذه الوصية سيكون الحديث في المباحث التالية:



(١) لقمان الحكيم وحكمه (ص١٦٤).



المبحث الأول

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تبرز أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عدة أمور:

١- **قدم الله ﷻ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله تعالى**؛ وذلك عندما امتدح المؤمنين فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهذا يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ لا يمكن أن ينتشر الإيمان بالله إلا عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢- **إرسال الرسل وإنزال الكتب من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**؛ قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

٣- **أن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحصل به النجاة من عذاب الدنيا**؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧]، ولم يقل الله وأهلها صالحون!! لأن الذي يعمل على إصلاح الناس هو الذي يحي الأمة ويعمل على نجاتها، أما الصالح فلنفسه فقط، فهو لا يعمل لنجاة نفسه ولا لنجاة أمته ومجتمعه فيستحق الهلاك مع الهالكين.

وقد وضح الله هذا المعنى أكثر فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأعراف: ١٦٥]، فالناجون هنا هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

٤- **أننا مأمورون به شرعا على قدر الاستطاعة**؛ قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ

﴿إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

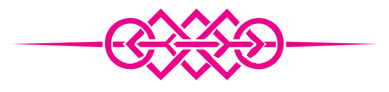
وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[١]، فإذا قوي الإيمان ازداد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥- **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات هذه الأمة التي امتدحها الله بها؛** قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

[آل عمران: ١١٠].

٦- **نبه الله سبحانه أن بني إسرائيل لعنوا بسبب عدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر؛** قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩﴾ [المائدة: ٧٨].

٧- **الأجر الكبير على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛** فعن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من دل على خير فله مثل أجر فاعله**»[٢]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيء، ومن دعا إلى ضلال كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيء**»[٣].

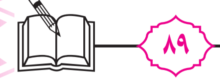


---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله (١٨٩٣).

(٣) أخرجه مسلم كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلال (٢٦٧٤).



المبحث الثاني

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ فقد جمع الله تعالى في هذه الآية بين الوصية بالصلاة، والوصية: بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصلاة ركن من أركان هذا الدين، فهذا يدل عل عظم ما ذكر بعدها.

ويدل لذلك قول الله تعالى: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨]. فجمع الله تعالى بين الدعوة إليه والعمل والتبرؤ من الشرك وأهله، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ [فصلت: ٣٣]. فجمع بين الدعوة إلي الله وإعلان الإسلام.

يقول شيخ الإسلام عليه رحمة الله: «وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، ولكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك؛ ما يقدر عليه إذ لم يقم به غيره، كالجهاد في سبيل الله»(١).

من هنا يُعلم أن حكم الدعوة إلى الله واجب كفائي: إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين، وهذا الوجوب على حسب الاستطاعة، فإن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»(٢).

فكلٌ على استطاعته، وكل إنسان أعلم باستطاعته. والله جل جلاله أعلم باستطاعة عباده، وسيحاسبهم عليها إذا قصروا فيها.

---

(١) منهج ابن تيمية في الدعوة (١/ ٢٥).

(٢) تقدم تخريجه.

المبحث الثالث

تنبيهات مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضوابط وحدود يجب على من سلك هذا الأمر أن يتبعها ونجملها في النقاط التالية:

١- الإخلاص لله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، فالله تعالى لا يريد منا أن ندعو الناس ويكون لنا مطامع أخرى غير رضوان الله كالرياء والشهرة وحب الرياسة والتعالي على الناس، أو من أجل مال أو جاه أو غيرها من مطامع الدنيا.

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلى «**أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[(١)].

٢- مطابقة القول العمل (القدوة):

يجب على الداعية أن يكون ما يأمر به وينهى عنه مطابقا لحاله، فلا يأمر الناس بالمعروف ولا يأتيه، وينهى الناس عن المنكر ويأتيه. قال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾. [البقرة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٢-٣].

وعن النبي ﷺ أنه قال: «**يؤتى بالرجل يوم القيامة فتندلق أقتابه**[(٢)]**، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار: فيقولون: يا فلان! مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر؟ فيقول: بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

(٢) أي: أمعاء بطنه.

(٣) أخرجه البخاري كتاب بدأ الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٧)، ومسلم كتاب الزهد والرقائق باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله (٢٩٨٩).

وليس المقصود من ذلك ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للعاصين، لأن هذا من مداخل الشيطان على الدعاة إلى الله، فإنه ما من إنسان إلا وله ذنوب، ولو أن الإنسان تقاعس حتى يتطهر من جميع الذنوب ما أمر أحد بالمعروف وما نهى أحد عن منكر. يقول سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: «لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء من المعاصي، ما أمر أحد بالمعروف ولا نهي أحد عن منكر»(١).

ولكن المقصود الابتعاد عن تلك المعاصي وإتيان الأوامر لكي يصدق الداعي مع نفسه ومع الناس، ولا يكون هذا الذي ينصح به حجة عليه يوم القيامة، وأن يكون العمل الذي يدعو الناس إليه بمثابة الحافز الذي يحفزه على فعل الخير، وهذا ما يؤكد عليه كثير من علماء السلوك في عصرنا الحاضر(٢).

٣- العلم:

قال تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾«وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه»(٣).

وقد بوب البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ بابًا بعنوان: «بَاب الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩] فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ [العنكبوت: ٤٣]»(٤).

«قال ابن المنير: أراد به أَنَّ العلم شرْط في صحَّة القَوْل والعمل، فلا يُعتبران إلاَّ به، فهو مُتَقَدِّم عليهما لأنّه مُصحّح للنِّيَّة المصحِّحة للعمل، فنبَّه المصَنِّف على ذلك حتَّى لا يَسْبِق إلى الذّهْن من قولهم: إن العلْم لا ينفع إلا بالعمل، تهوين أمر العلم والتَّسَاهُل في طلبه»(٥).

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٩١).

(٢) للاستزادة: انظر العادات السبع لإستيفن كفي.

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦٤٩).

(٤) هذا الباب من صحيح البخاري كتاب العلم.

(٥) فتح الباري (١/ ١٩٢).

ولا يقصد بذلك أن يكون الداعي إلى الله محيطًا بجميع أحكام الإسلام وإنما أن يكون عالمًا بما يدعو إليه وفيما ينكر فيه.

٤- الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن:

وغيرها من أخلاق الدعاة، وهي من أخلاق الدعاة المهمة جدًا، لكي يُستقبل هذا الدين بِيسرٍ وسهولةٍ ولا يُنفّر منه، ولكي يحس المدعو أن الذي يدعوه مشفق عليه يحب له الخير، حتى لو وصل الأمر إلى المجادلة فتكون المجادلة بالحسنى؛ قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال تعالى مخاطبًا موسى وهارون حينما بعثهما إلى فرعون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]. «هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون في غاية العتو والاستكبار والكفر، ومع هذا فإن الله أمرهما ألا يخاطباه إلا باللطف واللين»[1]. فإن كان هذا التوجيه في جانب الكافرين، ففي جانب المسلمين سيكون بلا شك أكثر لينا ولطفا لأنهم أقل حاجة للمعالجة والمجادلة.

٥- الصبر على أمر الدعوة:

قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ «علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر»[2].

فالصبر من أهم الصفات التي ينبغي على الداعية أن يتصف بها، وذلك لأن الداعية إلى الله لا بد أن يتعرض إلى أنواع من الإيذاء والتكذيب والاستهزاء فيجب عليه أن يتحلى

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ١٣٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٣٨).

بسلاح الصبر ليواجه به كل العقبات التي في طريق دعوته[١].

٦- عدم تتبع عورات المسلمين:

فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر همه إصلاح الناس وليس تتبع عوراتهم وكشفها، وإصغاء الآذان لكل متكلم، وملاحقة الناس والتنقيب عن زلاتهم. فمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحرص على ستر عورات الناس وحفظ أسرارهم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢].

وهناك حالة واحدة يجوز له أن يتجسس فيها: وهي إذا خاف وقوع المنكر وفواته[٢]. قال الماوردي: «... أن يكون في ترك التجسس انتهاك حرمة، يفوت استدراكها، مثل أن يخبره من يثق بصدقه أن رجلًا خلا برجل أو بامرأة ليزني بها، فيجوز له في مثل هذه الحالة أن يتجسس ويقدم على الكشف والبحث، حذرًا من فوات ما لا يستدرك من انتهاك المحارم وارتكاب المحظورات»[٣].

٧- مراعاة أحوال المخاطبين:

وذلك من جميع الجوانب والوجوه التي يحتاجها الداعية والمدعو، من حيث المرحلة العمرية، والمستوى الثقافي، والبيئة التي يعيشون فيها.

كما ورد عن ابن مسعود أنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة»[٤]. وهذا منهج للنبي ﷺ، حيث كان يأتيه الرجل فيسأله عن الأمر، فيجيبه بما

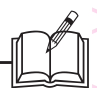
---

(١) والحديث عن الصبر سيأتي مستوفى في الوصية السادسة.

(٢) يمكن مراجعة الأدلة والتوسع في المسألة من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للشيخ: عبد العزيز المسعود (٢/ ٢٢٧ - ٢٤٦).

(٣) الأحكام السلطانية (٢٥٣).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الدعوات باب الموعظة ساعة بعد ساعة (٦٤١١). ومسلم كتاب الجنة والنار باب الاقتصاد في الموعظة (٢٨٢١).



يناسبه، ويأتيه الآخر فيجيبه بما يناسبه[١]. فهذا فن في الدعوة إلى الله، فيجب على الدعاة أن يهتموا به لما فيه من مراعاة ما يحتاجه الناس من أنواع الهداية.

٨- التدرج مع المدعو:

هذا التدرج يكون في دعوته بالأهم فالمهم، كأن يدعو إنسانًا لا يصلي ويغتاب، فهنا يبدأ بالصلاة أولًا، ثم يتبعها بالنهي عن الغيبة، مع العلم أنه لو صلى لانتهى عن الغيبة غالبًا، لأن صلاته تنهاه عن ذلك. ويكون في التدرج بيان حكم معين، ولقد أنزلت آيات تحريم الخمر على ثلاث مراحل، وذلك مراعاة للتدرج مع المدعوين.

وهذا الأمر واضح جدًا في حديث معاذ رضي الله عنه عندما أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي اليمن فقال له: «**إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله: فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا: فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها: فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس**»[٢].

٩- التجديد والتنويع في وسائل الدعوة:

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَٱسْتَكْبَرُوا ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: ٥ - ٩].

---

(١) كما ورد ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني؟ قال: (لا تغضب)، فردد مرارًا قال: (لا تغضب) البخاري (٦١١٦). وقال للآخر غير ذلك، فعن جرموزا الهجيمي رضي الله عنه قال؛ قلت: يا رسول الله أوصني؟ قال: (أوصيك أن لا تكون لعانا) مسند أحمد (٥/ ٧٠) (٢٠٦٩٧)، وعلق شعيب الأرنؤوط بأن إسناده قوي.

(٢) أخرجه البخاري باب لا تأخذ كرائم أموال الناس في الصدقة (١٣٨٩) واللفظ له. ومسلم كتاب الإيمان باب الدعوة إلى الشهادتين وشرائه الإسلام (١٩).

فالداعية الجيد يحاول أن يبعد الملل عن المدعويين، باستخدام أنواع الوسائل الدعوية في الدعوة إلى الله، وذلك استثمار كل وسيلة دعوية نافعة في دعوته، ومحاولة اختيار وابتكار وسائل دعوية يستعان بها على الإنكار والأمر بالمعروف، تناسب المكان والزمان والمدعوين وقبل ذلك ليس فيها مخالفة شرعية.

١٠- الاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جميعهما:

ولا يقتصر على النهي عن المنكر، أو الأمر بالمعروف فقط. لأن هناك من يظن أن الدعوة إلى الله هي النهي عن المنكر فقط، وهذا خطأ كبير في حق الدعوة، مع أن الله تعالى قدم الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر في كل مواضع القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ وذلك تنبيها على أهمية الأمر بالمعروف، وأنه إذا أمر بالمعروف زال منكر من المنكرات، كما قال النبي ﷺ: «**ما أحدث قوم بدعة إلا رفع مثلها من السنة، فتمسُّكٌ بسنة خير من إحداث بدعة**»[١]. ومنه قول بعض السلف: «إذا أُحْيِيَت سُنَّةٌ ماتت بِدْعَةٌ»[٢].

١١- شمولية الدعوة إلى الله وعالميتها:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

فالدعوة إلى الله شاملة كل نواحي الحياة فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يدخل في كل الأمور الدينية والدنيوية سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو علمية أو صناعية أو زراعية... أو غيرها من متطلبات الحياة.

---

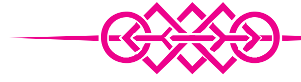
(١) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٠٥) (١٧٠١١)، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٤٤٧)، والألباني في إصلاح المساجد (٤٩)، وسكت عنه ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٥٤)، والله أعلم.

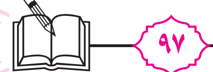
(٢) لم أصل إلى من قال هذه المقولة، ولكن تعضدها وتقويها الأحاديث وأقوال الصحابة وسائر السلف، وقد أشار إليها الأئمة، وانظر: اعتقاد أهل السنة للالآلكائي (١/ ٩٠)، والاعتقاد للبيهقي (٢٢٧). والله أعلم.

وأنها لكل الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية والمادية وبيئاتهم الاجتماعية، فالدعوة ليست مخصوصة بجنس دون جنس، ولا بمجموعة دون أخرى.

ويجب أن يكون الدعاة لكل أصناف الناس، ولا يقتصروا على فئة معينة من الناس كطلبة العلم فقط، أو الملتزمين بالتدين فقط، أو العصاة فقط.

ومن شمولية الدعوة وعالميتها أن كل فرد مطالب بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حسب استطاعته. فالدعوة إلى الله ليست مقصورة على العلماء وطلبة العلم كالفتوى والقضاء، بل على كل من يمتلك القدرة والاستطاعة على ذلك، حتى العصاة؛ فإن معصيتهم لا تسقط عنهم واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.





الفصل السابع

الوصية السابعة: الصبر

المبحث الأول

فضل الصبر وأهميته

قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ أي: «واصبر على ما أصابك من الشدائد والمحن، لاسيما فيما أمرت به من إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالصبر على إقامة الصلاة: لأن إتمام الصلاة والمحافظة عليها قد يشق، ولذلك يقول الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: ٤٥]، وإذا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر وأصابك في ذلك أذي وشدة فاصبر عليها»[١]، وذلك كما قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فالصبر يكون على الأذى من المدعوين، ويكون على المشقة والتعب في تبيين الحق لهم، والصبر على عدم الاستجابة منهم.

وأمر الصبر عظيم جدًا، ولذلك قال تعالى في ختام الآية: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾. «أي: أن الأمور التي وصى بها لقمان ابنه، والصبر على أدائها، من الأمور التي يعزم عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم»[٢].

ووجوه دلالة الآيات والأحاديث على فضل الصبر كثيرة فمنها:

١- أن الصابر تحصل له معية الله:

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: ٤٦] «فأمرهم بالصبر على شدائد الحرب، وأخبرهم أنه مع

---

(١) روح المعاني (٢١/ ٨٨).

(٢) تيسير الكريم الرحمن السعدي (ص٥٩٧).

الصابرين في كل أمر ينبغي فيه الصبر»[١].

٢- بشارة المؤمنين في الدنيا برحمة الله والفلاح في الآخرة:

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٧].

٣- الأجر الكثير بغير حساب:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠] «ما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأن الصوم من الصبر قال تعالى في الحديث القدسي: «**إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي**»[٢]»[٣].

وقال ﷺ: «**ليس مؤمن يصيبه نكبة شوكة ولا وجع إلا رفع الله ﷻ له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة**»[٤].

٤- محبة الله للصابرين:

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران: ١٤٦]. أي: «وما جبنوا، ولكنهم صبروا على أمر رَبهّم، وطاعة نبيهم، وجهاد عدوهم»[٥]، «والظاهر العموم لكل صابر على ما أصابه، من قتل في سبيل الله، أو جرح، أو بلاء، أو أذى يناله بقولٍ أو فعلٍ، أو مصيبة في نفسه، أو أهله أو ماله، أو ما يجري مجرى ذلك. وكثيرًا ما تمدحت العرب

---

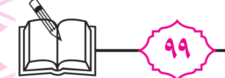
(١) فتح القدير (٢/ ٣١٥).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الصيام باب فضل الصيام (١١٥١).

(٣) مختصر منهاج القاصدين (ص٢٦٨).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٥٨٤٦)، وابن حبان (٢٩١٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) معالم التنزيل (٢/ ١١٦).



بالصبر وحرصت عليه»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عظم الجزاء من عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط**»[٢].

والتعبير بالحب من الله للصابرين، له وقعه، وله إيحاؤه، فهو الحب الذي يأسو الجراح، ويمسح على القرح، ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير!

٥- القيادة في الدنيا والدين بالصبر واليقين بالله:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]. أي: «لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيه وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر»[٣]، فالنصر والتمكين وهداية الناس جائزة الصابرين في الدنيا.

٦- العاقبة للمتقين الصابرين:

قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩]. أي: «تلك الأنباء، من أنباء ما غاب عنك أوحينا لك بها لتقف عليها، كانت مجهولة عندك وعند قومك. فاصبر على مشاق الرسالة، وأذية القوم كما صبر نوح، فالعاقبة في الدنيا بالظفر، وفي الآخرة بالفوز، للمتقين عن الشرك والمعاصي»[٤].

---

(١) البحر المحيط (٣/ ٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي كتاب الزهد باب الصبر على البلاء (٢٣٦٩)، وقال: حديث حسن. وابن ماجة كتاب الفتن باب الصبر على البلاء (٤٠٣١). وأحمد في المسند (٣٩/ ٣٥) (٢٣٦٢٤). وصححه الألباني في صحيح الترمذي، وصحيح الجامع (٢٨٥)، والصحيحة (١٤٦).

(٣) تفسير القرآن العظيم ابن كثير (٦/ ٣٧١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٤٩).

فأمر الله نبيه ﷺ بالصبر ونبهه على أن العاقبة للمتقين، والصبر من صفات هؤلاء المتقين.

٧- توجيه الله للرسول والأنبياء بالصبر:

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. هذا توجيه لنبينا محمد ﷺ، وهو الذي احتمل ما احتمل، وعانى من قومه ما عانى، وهو الذي نشأ يتيمًا، وجرد من الولي والحامي، ومن كل أسباب الأرض واحدًا بعد واحد، كما هو مجرد من كل سند أو ظهير. وهو الذي لقي من أقاربه من المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين؛ وهو الذي خرج مرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرد في كل مرة بلا نصرة.

«فامتثل ﷺ لأمر ربه فصبر صبرًا لم يصبره نبي قبله حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعا بصده عن الدعوة إلى الله وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة[(١)].

وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه من ربه بالصبر، أَلاَ إنه لطريق شاق، حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ﷺ - في تجردها وانقطاعها للدعوة؛ وفي ثباتها وصلابتها، وفي صفائها وشفافيتها، تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر، وعدم الاستعجال، لأن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر.

٨- توجيه الله المؤمنين وأمرهم بالصبر:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. «أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسرّاء ولا لضرّاءَ ولا لشِدَّة ولا لرِخَاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم»[(٢)].

والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة. إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٧٨٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم ابن كثير (٢/ ١٩٥).

والأشواك مفروش بالدماء والأشلاء وبالإيذاء والابتلاء، الصبر على أشياء كثيرة مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل، لا تصوره حقيقة الكلمات! فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة، إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق؛ وتذوقها انفعالات وتجارب ومرارات.

والمصابرة: وهي مفاعلة من الصبر، فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة. بل يظلون أصبر من أعدائهم، فهذه الدعوة تواجه الناس بمنهج حياة واقعي. منهج يتحكم في ضمائرهم، كما يتحكم في أموالهم، كما يتحكم في نظام حياتهم ومعايشهم. منهج خير عادل مستقيم فلا بد من الصبر والمصابرة.

٩- النصر يكون للصابرين:

قال تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾ [الأنفال: ٦٥]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة، تبين أن الصبر هو سبب من أسباب النصر، ولذا فالتنبيه عليه من الأمور المهمة جدًا في حياة المجاهدين، لكي لا يستسلموا لليأس، أو يستكينوا للهوان، أو يرضوا بالذل.

١٠- لا يعتبر وينتفع بآيات الله إلا الصابرون:

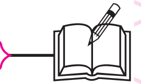
قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾﴾ [إبراهيم: ٥]، لأنه إذا صبر على التفكر بآيات الله تأثر بآيات الله، فكانت له عبرة وعظة فيما يقدم عليه من الأمور.

١١- الصبر ضياء:

قال رسول الله ﷺ: «**الصبر ضياء**»[١]. «والمراد أن الصبر محمود ولا يزال صاحبه

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (٢٢٣).



مستضيئًا مهتديا مستمرًا على الصواب»[١]، وذلك لأن المبتلى تحصل له ظلمة، والذي يخرجه من هذه الظلمة هو الصبر فالصبر إذًا هو الضياء. «ولكن الصبر محرق كشدة حرارة الضياء، فالضياء نور قوي فيه حرارة ونوع إحراق، فلهذا جعل الصبر ضياء»[٢].

١٢- أفضل شيء يعطاه العبد في هذه الدنيا الصبر:

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]، فـ «إنه تعالى جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم، وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وقال أحد السلف وقد عزِّي على مصيبة نالته فقال: ما لي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال، كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «**ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى الله أحدا من عطاءً أوسع من الصبر**»[٤].

وذلك لأن الإنسان إذا رزق الصبر؛ استطاع أن يقوم بكل ما أوجبه الله عليه، وينتهي عن كل ما نهاه الله عنه، ويثبته الله على هذا إلى أن يلقى الله عز وجل.

١٣- بالصبر والشكر يحصل الخير للمؤمن وهو من صفات المؤمنين:

قال ﷺ: «**عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له**»[٥].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (٣/ ١٠١).

(٢) شرح متن الأربعين النووية للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ (٢٤/ ٩).

(٣) عدة الصابرين (٥٨).

(٤) أخرجه البخاري كتاب الزكاة باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٦٩). ومسلم كتاب الزكاة باب فضل التعفف والصبر (١٠٥٣).

(٥) أخرجه مسلم كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩).

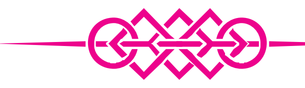
«فالصبر كنز من كنوز الخير، لا يعطيه الله ﷻ إلا لعبد كريم عنده، وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة، فيطلعها وفيها﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ۝٤٨ ﴾ [الطور: ٤٨]»[١]، «وحقيقة الإيمان: الصبر على المكاره»[٢].

وهذا أحد السلف يوصي أبنائه فيقول: «... ومن يصبر على ما يكره يدرك ما يحب، وإذا أراد أحدكم أن يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى، وليثق بالثواب من الله، فمن يثق بالثواب من الله لا يجد مس الأذى»[٣].

«والصبر خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها»[٤]، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الصابرين.

١٤- جعل الله تعالى الصبر عونًا وعدة:

قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [البقرة: ٤٥]، «فمن لا صبر له لا عون له»[٥].



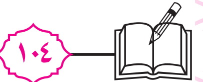
(١) مختصر منهاج القاصدين (٢٧٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٦٩).

(٣) الدر المنثور (٥/ ٣٢٠).

(٤) عدة الصابرين (١٤).

(٥) عدة الصابرين (٥٨).



المبحث الثاني

أنواع الصبر

الصبر ثلاثة أنواع:

النوع الأول: صبر على طاعة الله:

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ [الكهف: ٢٨].

طاعة الله جل جلاله تحتاج إلى صبر:

١- صبر على الإخلاص فيها.

٢- وصبر على المجاهدة أثنائها.

٣- وصبر على الثبات عليها.

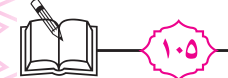
ولذلك كان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «**إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل قلبه معلق بالمساجد**»[(١)]، فكل هؤلاء الخمسة ينطبق عليهم الصبر على طاعة الله، ولذلك كان لهم أن يكونوا تحت ظل عرش الله تعالى.

النوع الثاني: صبر عن معصية الله:

وهذا النوع يأتي في الدرجة الثانية من أنواع الصبر، لأنه فيه مشقة على النفس وفيه اختيار للنفس يمكن أن ترتكب المعصية أو لا فالاختيار لها. ولذلك كان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني**

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الزكاة باب الصدقة باليمين (١٤٢٣). ومسلم كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).



أخاف الله»[١]. فلصعوبة ما ابتعد عنه هذا الرجل؛ التزامًا بما نهاه الله عنه، وبخوفه من الله، استحق أن يكون تحت ظل عرش الله ﷻ. ونحن مطالبون باجتناب المعاصي دائما ما دمنا أحياء على هذه الأرض فلذلك كان الاختبار في هذا النوع شديد.

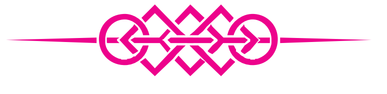
النوع الثالث: صبر على أقدار الله:

الابتلاءات التي تصيب العبد كثيرة جدا ومنها: الأمراض، أذى الناس، الفقر، فشل الأولاد، الزوجة، موت قريب أو حبيب... الخ.

والأجر الذي أعده الله للصابرين على هذه الابتلاءات أكثر، والله يريد منا الصبر عليها.

ويكفي أن الله يجازي العبد إذا صبر على هذه الابتلاءات أن يكفر الله بها عنه الخطايا، قال ﷺ: «**ما يصيب العبد من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم؛ حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر الله بها من خطاياه**»[٢].

وقال ﷺ: «**إذا أراد الله بعبد الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبد الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة**»[٣] [٤].



---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري كتاب المرض باب ما جاء في كفارة المرضى. ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٢٥٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٦) وقال حديث حسن صحيح. سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٢٢٠) رقم (١٢٢٠)، وصحيح سنن الترمذي (١٩٥٣).

(٤) للاستزادة راجع مختصر منهاج القاصدين (٢٧٠)، فقد أجاد رَحِمَهُ اللهُ في تقسيم أنواع الصبر.

المبحث الثالث

إبتلاء الله للصالحين

قد يتساءل كثير من الناس: لماذا يبتلي الله الصالحين؟

هذا السؤال مهم جدًا، إذا علم المسلم إجابته كان حافزًا له على الصبر، وهي مما يغفل عنه كثير من الناس، ونجملها في النقاط التالية:

١- رفعة الدرجات وتكفير السيئات:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

وقد سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ فقال ﷺ: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا، زيد في ابتلائه وإن كان في دينه رقة يبتلى على حسب دينه، حتى يتركه الله يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة**»[1].

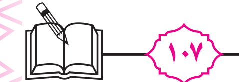
٢- التميز بين الناس:

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ١ - ٣].

فدلت الآيات أنَّ «الله ﷻ لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين، بحسب ما عندهم من الإيمان، كما في الحديث المتقدم عن رسول الله ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم**

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ١٧٢)، والترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨)، وابن ماجة كتاب الفتن باب الصبر على البلاء (٤٠٢٣). وقال الألباني حسن صحيح في صحيح سنن الترمذي (١٩٥٧)، وصحيح سنن ابن ماجة (٤٠٢٣).



الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء»[١]، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ أي: الذين صدقوا في دعواهم الإيمان، مِمَّنْ هو كاذب في قوله ودعواه، والله ﷻ يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة»[٢].

إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف؛ وأمانة ذات أعباء؛ وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا. وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم؛ خالصة قلوبهم. كما تُصهر النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به.

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء؛ ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم؛ لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم. وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحدًا إلا بما استعلن من أمره، وبما حققه فعله. فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه!

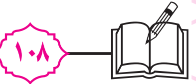
إن الإيمان أمانة الله في الأرض، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص. وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى المتاع والإغراء.

«فمن تمام حكمة الله ﷻ أن حكمته لا تقتضي أن كل من قال إنه مؤمن وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب،

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٢٦٣).



والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر.. ونحو ذلك من الفتن، الشبهات والشهوات، والناس في هذا المقام درجات لا يحصيها إلا اللّه، فمستقل ومستكثر، فنسأل اللّه تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكير، يخرج خبثها وطيبها»[١].

٣- لأن المصائب تذكر بالنعم:

فالعبد الصحيح لا يحس بنعمة الصحة إلا إذا مرض، فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، لقول النبي ﷺ: «**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**»[٢]، وقس على ذلك جميع ما أنعم الله به على العباد، فإنهم لا يشعرون بنعمة الله إلا إذا فقدوها، أو حصل لهم مكروه فيها.

٤- لكي يشتاق الإنسان للجنة:

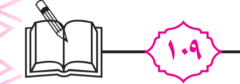
فإنه لن يشتاق للجنة إذا كانت حياته كلها نعيم، وبدون ابتلاء، فالمتاع في الدنيا يصرف الناس عن التفكر في الآخرة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝١١﴾ [الجمعة: ١١].

وعندما ابتلى الله ﷻ الصحابة بقتال قريش في غزوة بدر، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض**» فقال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «**نعم**» قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: «**ما يحملك على قولك: بخ بخ**» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٢٦)، مختصرًا.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٤١) (٧٨٤٦)، والبيهقي في الشعب (٧/ ٢٦٣) (١٠٢٤٨)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ١٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٧).



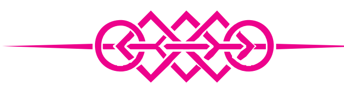
أهلها قال: «**فإنك من أهلها**» فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه؛ إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قتل)(١)، نعم فالابتلاء يجعل المسلم تتوق نفسه للجنة، فيعمل طالبًا - وهو في ابتلاء - الجنة، لأنه يعلم أن لا راحة إلا في الجنة.

٥- الابتلاء يكون في السراء كما هو بالضراء ليختبر إيمان أهل الإيمان:

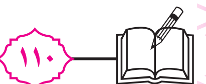
قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٣٥﴾ [الأنبياء: ٣٥]. نبه الله تعالى على أن الابتلاء ليس في الضراء فقط. فيبتلي الله المؤمنين بالسراء لينظر الله سبحانه ماذا سيعملون في هذه السراء؟ هل سيشكرون الله عليها، ويستعينون بها على طاعة الله، أم لا؟

فهذا يوسف عليه السلام يبتليه الله بالسراء بعد الضراء، فما كان منه إلا أن قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾ [يوسف: ١٠١]، فلم تأخذه عزة السلطة بأن ينسى الله، بل اعترف بالفضل أولًا وأخيرًا لله تعالى.

وكذلك سليمان عليه السلام قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾ [النمل: ١٩].



(١) أخرجه مسلم كتاب الإمارة باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١).



المبحث الرابع

نماذج الصابرين

نذكر لكل نوع من الأنواع السابقة نموذجًا، نستفيد منه، ويكون لنا مثالًا عمليًا في حياتنا:

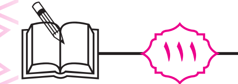
النموذج الأول: في الصبر على طاعة الله تعالى:

قال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠٢ - ١٠٦].

يا لله، ويا لروعة التسليم والطاعة لله ﷻ. هذا هو إبراهيم الشيخ المقطوع من الأهل والأقارب، والمهاجر، يرزق في كِبره بغلام طالما تَطلع إليه يأنس به ويرافقه في الحياة.. يُؤمر بذبح ابنه فماذا؟ إنه لا يتردد عن الطاعة مع أن الأمر كان عبارة عن إشارة وليست وحيًا مباشرًا، ولكنه التسليم لأمر الله، ولكنه لا يُسلِّم في جزع ولا يطيع في اضطراب وذلك يتضح في كلماته لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾. فماذا يكون من الغلام الذي يعرض عليه الذبح تصديقا لرؤيا والده؟

إنه يتلقى الأمر بالطاعة وليس ذلك فحسب ولكن في رضى ويقين بالله تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ إنه ارتقى إلى الأفق الذي ارتقى إليه أبوه من قبل.

هذان نموذجان في وقت واحد نموذج الوالد وولده يتلقيان الأمر بكل طاعة وتسليم لله تعالى. وهذا من أعظم الأمثلة في الصبر على طاعة الله تعالى. فهل نصل نحن إلى هذه الدرجة أن نضحي بأنفسنا وأهلنا في سبيل الله.



النموذج الثاني: في الصبر عن معصية الله تعالى:

من أجمل المواقف وأشدها تأثيرا في النفس، موقف نبي الله يوسف عليه السلام في محنته في بيت العزيز، هذا الموقف الذي صمد فيه نبي الله يوسف أشد الصمود، وصبر فيه أشد الصبر، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: ٢٣].

شاب في عنفوان الشباب، كامل الصحة، أعزب، غريب عن الديار، مغلق عليه الباب، تراوده امرأة جميلة، ذات منصب، هددته إن لم يفعل، ومع ذلك يقول: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ يا له من صبر، ويا لها من خشية لله تعالى!! جعلته يصبر عن هذه المعصية، بعد توفر كل السبل، ولكن يعلو الإيمان قلبه ويتذكر مراقبة الله تعالى له فيصبر عن هذه الدعوة إلى ما حرم الله تعالى، بل ويختار السجن على ما تريده منه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: ٣٣]. وهذا كما قال رسول الله ﷺ عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال إني أخاف الله رب العالمين**»(١).

النموذج الثالث: الصبر على البلاء:

إذ نذكر الصبر على البلاء، يتوارد إلى الذهن قصة أيوب عليه السلام: قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: ٨٤].

فهذا أيوب عليه السلام عاش ثمانين سنة غنيًا، موفور الصحة، عنده من الأولاد الكثير ويحبه الناس جميعا. ثم يشاء الله أن يموت أولاده كلهم ويصاب هو بالجذام حتى إن لحم جسمه تساقط فلم يبق عنده إلا لسانه وقلبه، وقد ذهب عنه الناس. وكانت امرأته

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الزكاة باب الصدقة باليمين (١٤٢٣). ومسلم كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

تخدم الناس بعد أن صرفت كل ماله في علاجه. وذات مرة قالت له زوجته: ألا تدعوا الله أن يشفيك؟ فقال لها أنعم على ثمانين عامًا!! فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟[1]!! قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤].

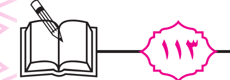
وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾، ثم لا يدعو بتغير حاله، ولا يقترح شيئًا على ربه. ففي هذه اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه كانت الاستجابة: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾. رفع الله عنه الضر في بدنه فإذا هو معافى صحيح، ورفع عنه الضر في ولده فعوض عمن فقد منهم رحمة من الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾: إشارة إلى أن العابدين معرضون للبلاء لكي يَعْلَم منهم صدق التوجه إليه ثم بعد ذلك هو الرحيم بهم، فيأتي بعد البلاء بالفرج.

فأيوب نموذج للعبد الصابر الذي لا يضيق صدره بالبلاء، فإنه مثال للبشرية كلها وموعظة للمؤمنين كلهم وأنه لا بد من الابتلاء، ولا بد من الصبر ليحصل الخير من ذلك البلاء.



(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/ ٣٥٩).



المبحث الخامس

طرق اكتساب الصبر

يجب أن يتحلى المؤمن بأمور ليكون من عباد الله الصابرين ومنها:

١- الاستعانة بالله تعالى على الصبر (بأنواعه الثلاثة) قال تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥].

٢- اليقين بالفرج من الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ [الشرح: ٥ - ٦].

٣- عدم تمني البلاء: قال ﷺ: «**لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا**»(١).

٤- تَذَكُّرُ أجر الصابرين وما أعد الله لهم عنده في الدنيا أو الآخرة.

٥- مقابلة المصيبة بالدعاء الذي وصانا به رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث: «**ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها إِلَّا آجَرَهُ الله في مصيبته وأخلف له خيرًا منها**»(٢) . وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ۝١٧٤﴾.

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الجهاد والسيرة باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس (٢٩٦٦). ومسلم كتاب الجهاد والسيرة باب كراهة مني لقاء العدو (١٧٤٢).

(٢) أخرجه مسلم كتاب الجنائز باب ما يقال عند المصيبة (٩١٨).

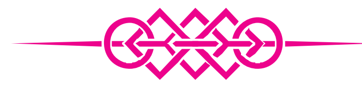
٦- الصبر عند الصدمة الأولى: قال ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**»[١].

٧- عدم التشكي وإظهار السخط من المصيبة، أو الفخر والتباهي بالصبر والتصبر، فإن ذلك يحبط أو ينقص الأجر، فالتفاخر بالصبر يأتي بالرياء، والتشكي والتسخط يأتي بعدم الرضى بأقدار الله، فيقع العبد في خطأ ويفوت على نفسه خير عظيم.

٨- تذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشريح القاضي رحمهما الله: «ما أصبت بمصيبة إلا حمدت الله على أربع أشياء: أنها لم تكن في ديني، أنها لم تكن أكبر منها، أن الله يعوضني عنها الجنة، أني تذكرت مصيبتي برسول الله ﷺ»[٢].

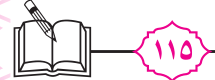
ومن هذا البيان يتبين لنا حكمة لقمان رحمه الله حينما وصى ولده بالصبر وخصوصا بعد وصيته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر بالصلاة.

وهذا هو طريق العقيدة المرسوم: توحيد لله، وشعور برقابته، وتطلع إلى ما عنده، وثقة في عدله، وخشية من عقابه، ثم انتقال إلى دعوة الناس، وإصلاح حالهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والتزود قبل ذلك بالزاد الأصيل زاد العبادة لله والتوجه إليه بالصلاة، ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله من التواء النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وإعراضها، ومن الأذى تمتد به الألسن وتمتد به الأيدي، ومن البلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء، هذا الصبر وصفه الله بأنه: ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ ، فهو قطع للطريق على التردد فيما بعد العزم والتصميم.



(١) أخرجه البخاري كتاب الجنائز باب زيارة القبور (١٢٨٣). ومسلم كتاب الجنائز باب الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٩٢٦).

(٢) أخرجه البيهقي عن شريح في شعب الإيمان (٧/ ١٩٨) الأثر (٩٩٨٠)، وتاريخ دمشق (٢٣/ ٤٢)، ونسبها لعمر بن الخطاب رضي الله عنه الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ١٢٩)، والمناوي في فيض القدير (٢/ ١٣٣) عند حديث (١٥٠٦).



الفصل الثامن

الوصية الثامنة: النهي عن الكبر

المبحث الأول

الكبر حقيقته وحرمته

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (١٨)﴾.

يشير لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصيته لابنه إلى أدب الداعية إلى الله، فالدعوة إلى الله لا تجيز التعالي على الناس والتطاول عليهم باسم قيادتهم إلى الخير، ومن باب أولى أن يكون التعالي والتطاول من غير دعوةٍ إلى الخير أقبح وأرذل، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا**»[(١)]، والتدابر «الإعراض وترك السلام»[(٢)].

ونهى في هذه الآية عن المشي في الأرض بين الناس بالكبر والعناد، والذي يفعل ذلك يبغضه الله ولا يحبه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

والكبر من الأمور التي نهي عنها المسلمون أشد النهي وجاء الوعيد الشديد على المتكبرين، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان فهو يتبختر فيهما، إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»[(٣)].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا يدخل الجنة من كان في**

---

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٦٠٦٥)، ومسلم كتاب البر والصلة والآداب باب التحاسد والتدابر والتباغض (٢٥٥٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٦٩).

(٣) أخرجه البخاري كتاب اللباس باب من جر ثوبه خيلاء (٥٧٩٠)، ومسلم كتاب اللباس والزينة باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه (٢٠٨٨).

قلبه مثقال ذرة من كبر» . فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسن ونعله حسن؟ قال: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطَرُ الحق وغمط الناس**»[١].

بطر الحق: دفعه ورده عن قائله، وغمط الناس: احتقارهم.

ولأن الكبر والإعجاب بالنفس واحتقار الآخرين؛ من الأمور التي تولد الشحناء والبغضاء بين المسلمين، حرمها الله، وجعلها سببًا من أسباب انتقام الله، فهذا قارون خسف الله به، وبداره الأرض؛ في الوقت الذي كان يتبختر في زينته بين قومه، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١].

ولذلك كان الوعيد عليها شديدًا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾ [غافر: ٣٥]. والإعجاب بالنفس يورث الهزيمة أمام الأعداء، قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم: ٣٢].

قال محمد بن الحسن بن علي: «ما دخل قلب رجل شيء من الكبر إلا نقص عقله بقدر ذلك»[٢].

ونظر طاووس إلى عمر بن عبدالعزيز وهو يختال في مشيته - وذلك قبل أن يستخلف - فطعنه طاووس في جنبه بإصبعه، وقال: «ليس هذا شأن من في بطنه خراء»[٣].

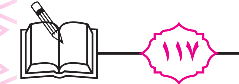


---

(١) أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (٩١).

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٤٦).

(٣) المرجع السابق.



المبحث الثاني
مظاهر الكبر التي شملتها الآية

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾.

يمكن عرض مظاهر الكبر التي أشارت الآية لها في النقاط التالية:

النهي عن تصعير الخد:

قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: «لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقارًا منك لهم، واستكبارًا عليهم، ولكن أَلن جانبك، وابسط وجهك إليهم»[1].

«وأصل الصعر: داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها، فشبه به الرجل المتكبر»[2]. فهذه الصورة عن الكبرياء تشبيه بليغ بعبارة موجزة، متضمنة قبح الفعل وبيان الداعي له، بأنه مرض محقق، سواء اعترف به المريض أم لم يعترف، فالأمر بيّنٌ واضحٌ للناس.

النهي عن التكبر في المشية:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: «جذلًا متكبرًا جبارًا عنيدًا»[3].

وقال تعالى موصيًا نبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]. «أي: لا تمشى في الأرض متبخترًا متمايلًا كما يفعل الجبارون، فإنك لن تقطع الأرض بمشيتك هذه، ولن تبلغ الجبال طولا بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك»[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٣٨).

(٢) المرجع السابق.

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٣٩).

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٥/ ٧٦) بتصرف.

النهي عن الإعجاب بالنفس:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ﴾. أي: «معجب في نفسه»[١].

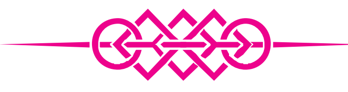
والمختال: من الخيلاء وهو التبختر في المشي كبرًا وقلة مبالاة بالناس، وهي حركة يبغضها الله ورسوله وهي تعبير عن شعور مريض بالذات.

«ففي هذه الصفة النهي عن الافتخار على الغير: متزينًا بحليته مرائيًا بما آتاه الله تعالى من فضله، على وجه العظم واحتقار الغير، يأنف من أن ينسب إليه أقاربه الفقراء، ويقذر جيرانه إذا كانوا ضعفاء، فلا يحسن إليهم لئلا يلمّوا به فيعيَّر بهم»[٢].

النهي عن الافتخار على الناس:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ﴾ **أي**: «فخور على غيره»[٣]، «الذي يعدد مناقبه كبرًا»[٤]، ويفتخر على الناس بغير الحق تكبرًا[٥]، مبالغًا في التمدح بالخصال، يأنف من عشرة الفقراء[٦].

«وفي ذلك أتم ترهيب من الخلق المانع من الإحسان، وهو الاختيال على عباد الله، والافتخار عليهم ازدراء بهم، فإنه لا مقتضى لذلك لأن الكل من نفس واحدة، والفضل نعمة منه سبحانه، يجب شكرها بالتواضع لتدوم، ويحذر كفرها بالفخار خوفًا من أن تزول»[٧].



(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٣٩).

(٢) نظم الدر (٢/ ٢٠٨).

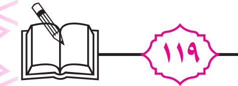
(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٣٩).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٧٠).

(٥) معالم التنزيل (٢/ ٢١٣).

(٦) نظم الدر (٢/ ٢٠٨).

(٧) نظم الدر (٢/ ٢٠٨).



المبحث الثالث
طرق اكتساب التواضع

يجب على المسلم أن يسعى لأن يكون متواضعًا، استجابة لأمر الله ورسوله، وللتواضع طرق يمكن اكتسابه من خلالها ومنها:

١- دعاء الله تعالى أن ينجيك من هذا المرض.

٢- تذكر حقارة نفسك: كما قال بعض الصالحين: «ما بال من أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو بين ذلك وعاء لقذرة أن يفخر»[١]، وما فعله مسروق مع أمير المدينة - سبق ذكره.

٣- النظر إلى من هو أعلى منك في الدين والخُلُق لكي تتواضع نفسك.

٤- النظر والاعتبار بتواضع رسول الله ﷺ.

٥- أن تتواضع لكل من هو أقل منك: فتتواضع للصغير والكبير الطاعن في السن، والفقير والمريض، والجاهل والعالم، وذلك: بالسلام عليهم، ومصافحتهم، وخدمتهم وإعانتهم، وإطعامه، والرحمة بهم، والأخذ بأيديهم على الحق، واللين معهم في الخطاب، وغير ذلك من أوجه البر والإحسان التي تصلك بربك، وتزيد في تحسين خلقه التواضع.

٦- التجاوب العكسي مع الموقف السلبي: فأي موقف تحس فيه بالكبر والخيلاء حوّله إلى تواضع مباشرة، مثلًا كنت تمشي في الشارع ورأيت أحد عمال النظافة فاستحقرته، وقلت في نفسك أنك أفضل منه، فمباشرة تواضع له، وأَذْهِب هذا الكبر بمصافحته مثلًا، والحديث معه، وتقديره. وقس على ذلك جميع المواقف.

---

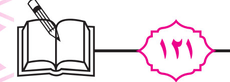
(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٩٤) (٨٢١١)، تاريخ دمشق (٢٤/ ٣٢٨)، وابن أبي الدنيا في قرى الضيف (١/ ٢١١)، وأصبح مثلًا كما في مجمع الأمثال (٢/ ٤٥٣).

عن المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر وعليه برد، وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حُلَّة؟ فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخوتي كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ فقال: «**يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية**» قلت: يا رسول الله من سب الرجال سبوا أباه وأمه قال: «**يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم**»[١].

هذه بعض المقترحات لاكتساب التواضع، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يتواضعون ولا يتكبرون، ويحسنون ولا يسيئون، ويعلمون فيعملون.



(١) أخرجه مسلم كتاب الأيمان باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦١).



الفصل التاسع

الوصية التاسعة: القصد في المشي

المبحث الأول

القصد في المشي من صفات المؤمنين

قال تعالى عن لقمان رضي الله عنه في وصيته لابنه: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ أي: «امش مشيًا مقتصدًا ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلًا وسطًا بين بين»[١]. «وهذه الصفة والتي تليها من تمام المروءة التي يتحلى به أصحاب الخلق والسمت الحسن ويغفل عنها الساقطون»[٢]. «وهكذا يؤدب الله عباده ويضمن كتابه ما فيه سعادتهم حتى لم يترك أدبهم في المشي والحديث»[٣].

والقصد هو: «ما بين الإسراع والبطء، أي لا تدب دبيب المتماوتين، ولا تثب وثوب الشطار»[٤].

قال الزهري: «سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن»[٥]، أي: «هيبته وجماله وتورثه حقارة في أعين الناس، وكأن ذلك لأنها تدل على الخفة، ولأنها تُتْعِب فتغير البدن والهيئة، فالمراد بالإسراع فيه ما فوق دبيب المتماوت، وهو: الذي يخفي صوته ويُقِلُّ حركاته مما يتزيا بزي العُبَّاد، كأنه يتكلف في اتصافه بما يقربه من صفات الأموات، ليوهم أنه ضَعُفَ من كثرة العبادة.

وهذا لا ينافيها قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]

---

(١) تفسير القرآن العظيم ابن كثير (٦/ ٣٣٩).

(٢) من لطائف التفسير (٣/ ٢٦٤).

(٣) لقمان الحكيم وحكمه (ص١٥٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٧١).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٦٨).

إذ ليس الهون فيه المشي كدبيب النمل، وذكر بعض الأفاضل أن المذموم اعتياد الإسراع بالإفراط فيه، وقال السخاوي: محل ذم الإسراع ما لم يخش من بطء السير تفويت أمر ديني، لكن أنت تعلم أن الإسراع المذهب للخشوع لإدراك الركعة مع الإمام مثلًا مما قالوا إنه مما لا ينبغي فلا تغفل، وعن مجاهد أن القصد في المشي التواضع فيه»[(١)].

وقد مدح الله ﷻ الذين يمشون على الأرض هونا فقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣] «فهم يمشون في حياتهم هونا أي في سكينة ووقار»[(٢)].

قال ابن القيم: «فأعدل هذه المشيات مشية الهون والتكفؤ وهي مشية عباد الرحمن كما وصفهم بها في كتابه فقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار من غير تكبر ولا تماوت وهي مشية رسول الله ﷺ»[(٣)].

فها هي ذي السمة الأولى من سمات عباد الرحمن: أنهم يمشون على الأرض مشية سهلة هينة، ليس فيها تكلف ولا تصنع، وليس فيها خيلاء ولا تنفج، ولا تصعير خد ولا تخلع أو ترهل. **فالمشية ككل حركة تعبير عن الشخصية، وعما يستكن فيها من مشاعر**. والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة، تخلع صفاتها هذه على مشية صاحبها، فيمشي مشية سوية مطمئنة جادة قاصدة. فيها وقار وسكينة، وفيها جد وقوة. وليس معنى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أنهم يمشون متماوتين منكسي الرؤوس، متداعي الأركان، متهاوي البنيان؛ كما يفهم بعض الناس!!

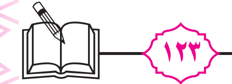
ومن هنا جاء الحديث عن هديه ﷺ في المشي لكي نقتدي به ﷺ إذ هو أعظم من مشى على هذه الأرض هونًا متواضعًا جالبًا للخير مانعًا عن الشر.

---

(١) روح المعاني (٢٠/ ٩٠ - ٩١) مختصرًا.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٦٨).

(٣) انظر: زاد المعاد (١/ ١٦٧) بتصرف.



المبحث الثاني

هديه ﷺ في المشي

لقد امتثل النبي ﷺ القصد في المشي، فأوضحت لنا سنته العملية أنه: «كان إذا مشى تكفأ تكفؤا[١]، وكان أسرع الناس مشية، وأحسنها وأسكنها، قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحد أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد[٢] أنفسنا وإنه لغير مكترث[٣]»[٤].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كان رسول الله إذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب[٥]»[٦]، وقال مرة: «إذا مشى تقلع»[٧]، والتقلع: الارتفاع عن الأرض بجملته، كحال المنحط من صبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أهدأ المشيات، وأروحها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهوج والمهانة، والتماوت[٨].

---

(١) تَكَفى تَكَفِّيًا: أي تمايل إلى قُدّام. انظر: النهاية (٤/ ٣٣٧). أي: يرفع القدم من الأرض ثم يضعها، ولا يمسح قدمه على الأرض كمشي المتبختر، انظر عون المعبود (١/ ١٦٦).

(٢) لنجهد أنفسنا: أي لنتعب أنفسنا. يقال جهد دابته وأجهدها إذا حمل عليها فوق طاقتها، فالمعنى إنا لنحمل على أنفسنا من الإسراع عقيبة فوق طاقتها، انظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ٩١).

(٣) لغير مكترث: اسم الفاعل من الاكتراث، والمعنى: غير مبال بمشينا، أو: غير مسرع؛ بحيث تلحقه مشقة، فكأنه يمشي على هينة، يقال: مبال به؛ أي: متعبٍ نفسه فيه، انظر: تحفة الأحوذي (١٠/ ٩١).

(٤) سنن الترمذي كتاب المناقب (باب ١٢) (٣٦٤٨)، وقال: حسن غريب، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

(٥) ينحط من صبب: أي يرفع رجله عن قوة وجلادة. انظر: عون المعبود (١/ ١٦٦).

(٦) أخرجه الترمذي كتاب المناقب (باب ٨) (٣٦٣٧). وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٧٧).

(٧) أخرجه الترمذي كتاب المناقب (باب ٨) (٣٦٣٨). وقال: حسن غريب. وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

(٨) الهوج والمهانة، والتماوت: شرح ابن القيم رحمه الله هذه الثلاث مشيات بقوله: «فإن الماشي إما أن يتماوت =

وكان يسوق أصحابه ويمشي حافيًا ومنتعلا، وكان يماشي أصحابه فرادى وجماعة، وكان ﷺ في السفر ساقة[١] أصحابه؛ يزجي[٢] الضعيف ويردفه، ويدعوا لهم[٣]»[٤].



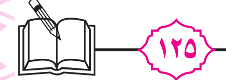
=في مشيه، ويمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة؛ وهي مشية مذمومة قبيحة، وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب، مشي الجمل الأهوج، وهي مشية مذمومة أيضًا، وهي دالة على خفة عقل صاحبها، ولا سيما إن كان يكثر الالتفات حال مشيه يمينا وشمالًا». انظر: زاد المعاد (١/ ١٦٧).

(١) ساقة الجيش أي: مؤخرة الجيش.

(٢) يزجي أي: يسوق.

(٣) انظر: سنن أبي داود كتاب الجهاد باب لزوم الساقة (٢٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

(٤) لقد أفرد الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في كتابه زاد المعاد - فصل في هديه ﷺ في مشيه وحده ومع أصحابه، انظر: زاد المعاد (١/ ١٦٧) وهذا مختصر منه.



المبحث الثالث

آداب المشي

بعد عرض هديه ﷺ في المشي نحاول أن نستنبط بعض الآداب التي حثنا عليها الشرع في المشي(١). فمن هذه الآداب:

١- استحضار النية الصالحة في كل أمر يمشى إليه:

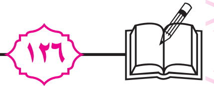
فالمسلم عندما يريد أن يذهب إلى مكان ما، فعليه أن يحتسب مشيته عند الله، فمثلا الذي يريد أن يذهب للعمل، فيحتسب عند الله أنه يمشي إلى العمل؛ لكي يطعم أولاده ويعفهم عن الحرام، والذي يمشي لزيارة أقاربه؛ يحتسب عند الله أنها صلة رحم، والذي يمشي للرياضة؛ يحتسب عند الله التقويَ على طاعة الله والجهاد في سبيل الله، وهكذا سائر عمله وحركته. فعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»(٢).

فعلينا أن نحول العادات إلى عبادات وذلك باستحضار نية العمل الصالح، وفضل الله واسع حيث أنه يجازي على العمل المباح الأجر الكثير؛ إذا كانت النية خالصة لله تعالى. فعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: أن ناسًا من أصحاب النبي قالوا للنبي ﷺ يا رسول الله: ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم!! قال ﷺ: «**أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ إن لكم بكل تسبيحة صدقة،**

---

(١) الآداب الإسلامية، عبد العزيز بن فتحي السيد (ص٧٧٩).

(٢) أخرجه البخاري كتاب بدأ الوحي باب كيف كان بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ (١). ومسلم كتاب الأمارة باب (إنما الأعمال بالنيات) (١٩٠٧).



وبكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وأمر بمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة» قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟!! قال: **«أرأيتم إن وضعها في حرام أيكون عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر»**(١).

فهنا جعل الرسول ﷺ الأمر المباح الذي يستمتع به صدقة دليل على أن العادات لو احتسب فيها النية لله تعالى تحولت إلى عبادات(٢).

٢- عدم المشي إلى الحرام:

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤].

فالإنسان تشهد عليه أعضائه يوم القيامة إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

٣- ذكر دعاء الخروج:

دعاء الخروج من المنزل ودعاء المشي إلى الصلاة، أو دعاء ركوب الدابة، وغيرها من الأدعية والأذكار، لما في ذلك من حفظ الإنسان من المكروه، وإتباع لسنة رسول الله ﷺ في ذلك، ولما في هذه الأذكار من الثواب الكبير عند الله تعالى.

٤- التواضع وترك التكبر في المشي:

كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان فهو يتبختر فيهما، إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة**»(٣).

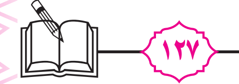
فإن التكبر في المشي مما يبغضه الله تعالى فقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) أخرجه مسلم كتاب الزكاة باب أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٦).

(٢) للاستزادة حول هذه النقطة وكلام العلماء: يراجع شروح الأربعين النووية للأحاديث (٢٥ - ٢٦ - ٢٩).

(٣) أخرجه البخاري كتاب اللباس باب من جر ثوبه خيلاء (٥٧٩٠)، ومسلم كتاب اللباس والزينة باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه (٢٠٨٨).



٥- القصد في المشي:

أي التوسط في المشي بين السرعة والبطيء. قال تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ﴾.

٦- لا يلتفت وهو يمشي:

فإن النبي ﷺ «كان لا يلتفت وراءه إذا مشى»[(١)]، وذلك خشيةً على الماشي أن يحصل له سوء؛ من سقوط في حفرة، أو الاصطدام بسيارة أو نحوها، وأيضا لكي لا يظن الناس به سوءًا، كأن يظنون أنه سارق يخاف من يتتبعه، أو هارب من يد العدالة فهو ملاحق ونحوها.

٧- عدم مشي النساء في وسط الطريق:

فقد نهى رسول الله عن ذلك صيانة للمرأة وحفاظا عليها من أعين الناس فقد روى أبوهريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**ليس للنساء وسط الطريق**»[(٢)].

٨- عدم مخالفة القوانين المتعلقة بتنظيم السير والسلامة:

لان ذلك في مصلحة للأمة، حيث أن التقيد بالسرعة المحددة وإشارات المرور، وعدم الوقوف في أماكن يمنع فيها الوقوف بسبب الزحمة أو غيرها، كل هذه وغيرها مما فيه مصلحة للناس، وعدم المشقة عليهم، وحفظا لدمائهم، وأموالهم، أن تهدر بسبب سرعةٍ في القيادة أو قطعٍ للإشارة، أو أي مخالفة لما يحتاجه الناس من نظام.

٩- عدم المشي بنعل واحد:

فلا ينبغي للمسلم أن يمش وفي إحدى رجليه نعل والأخرى حافية فإن ذلك لا يليق بالمسلم إذ فيه ذهاب الهيبة، ولفت أنظار الناس مما يجلب الاستنكار والاستهزاء.

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب المناقب (باب ٨) (٣٦٣٧). وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٧٧).

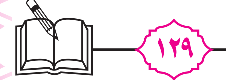
(٢) أخرجه البيهقي شعب الإيمان (٧٨٢٣)، وابن حبان (٥٥٧٢). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٥١١) (٢٨٦٥).

فإن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك فقال ﷺ: «**إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى، وإذا خلع فليبدأ بالشمال، ولينعلهما جميعا، أو ليخلعهما جميعا**»[(١)]، وذلك حتى لو انقطع أحد نعليه، فإن النبي ﷺ قال: «**إذا انقطع شسع أحدكم فلا يمش في نعل واحد حتى يصلح شسعه، ولا يمش في خف واحد**»[(٢)].



(١) أخرجه مسلم كتاب اللباس والزينة باب استحباب لبس النعل باليمنى أولاً (٢٠٩٧). وأخرجه البخاري كتاب اللباس باب ينزع لا يمشي بنعل واحدة (٥٨٥٥) بنحوه.

(٢) أخرجه مسلم كتاب اللباس والزينة باب النهي عن اشتمال الصماء والاحتباء في ثوب واحد (٢٠٩٩).



الفصل العاشر

الوصية العاشرة: خفض الصوت

المبحث الأول

الحكمة في الأمر بغض الصوت

قال تعالى عن لقمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصيته لابنه: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ أي: «لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه»[1]، وانقص منه، لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤذي، فإن أنكر الأصوات أي أقبحها وأوحشها صوت الحمير.

«فالأسلوب القرآني يُريد ذل هذا الفعل، ويقبحه في صورة منفرة محتقرة بشعة، حين يعقب عليه بقوله: ﴿إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ فيرتسم مشهد مضحك يدعو إلى الهزء والسخرية، مع النفور والبشاعة»[2]، فقد مثل بالحمير، لأن أصواتها مؤذية في سماعها، ولأنها عالية لا يحب أحد أن يسمعها.

«فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت خسته وبلادته»[3].

«والظاهر أن المراد بالغض من الصوت الغض منه عند التكلم والمحاورة، وقيل: الغض من الصوت مطلقًا فيشمل الغض منه عند العطاس، فلا ينبغي أن يرفع صوته عنده، إن أمكنه عدم الرفع، وروي عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه ما يقتضيه، ثم أن الغض ممدوح إن لم يدع داع شرعي إلى خلافه»[4].

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٦/ ٣٣٦).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٧١).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٦٢٧).

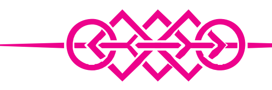
(٤) روح المعاني (٢١/ ٩١).

«وأردف الأمر بالقصد في المشي، بالأمر بالغض من الصوت، لَمَّا أنه كثيرًا ما يتوصل إلى المطلوب بالصوت بعد العجز عن التوصل إليه بالمشي كذا قيل، وقيل: إن الأول إشارة إلى التوسط في الأفعال، والثاني إشارة إلى الاحتراز من فضول الكلام، والتوسط في الأقوال»[١].

«فهذه الآية: أدبٌ من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاونا بهم، أو بترك الصياح جملة»[٢].

فالغض من الصوت فيه أدبٌ، وثقةٌ بالنفس. واطمئنانٌ إلى صدق الحديث وقوته. ولا يغلط ويزعق في الخطاب إلا سيء الأدب، أو شاكٍّ في قيمة قوله، أو قيمة شخصيته، فغضُّ الصوت: «أوفر للمتكلم، وأبسط لنفس السامع وفهمه»[٣]، «ورفع الصوت يؤذي السامعي، ن ويقرع الصماخ بقوة، وربما يخرق الغشاء الذي هو داخل الأذن»[٤].

ومن هنا يُعلم أن للحديث آدابًا يجب التحلي بها حفاظا على مروءة الإنسان وقدره بين الناس.

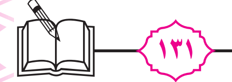


(١) روح المعاني (٢١/ ٩١).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٧٢).

(٣) روح المعاني (٢١/ ٩٠).

(٤) المصدر السابق.



المبحث الثاني
آداب الحديث

من أهم آداب الحديث[١] ما يأتي:

عدم رفع الصوت:

لأن رفع الصوت فيه سوء أدب مع الإنسان الذي تتحدث معه وهو مقتضى الأمر بغض الصوت في الآية الكريمة.

حفظ اللسان:

وحفظ اللسان يكون عن كل ما حرمه الله من (غيبة، ونميمة، وقول الزور، والبهتان، والقول الفاحش البذيء، والكذب...) فقد يتكلم المرء كلمة توبق دنياه وآخرته، قال رسول الله ﷺ: «**إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها فيزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**»[٢]. والرسول ﷺ قد ضمن الجنة لمن صان لسانه وفرجه، فقال ﷺ: «**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**»[٣].

قل خيرًا أو اصمت:

هذا أدب نبوي أدبنا به رسول الله ﷺ، وهي قاعدة يجب أن يعيها الإنسان قبل أن يتلفظ بأي كلمة، ويسأل نفسه هل هذه الكلمة خيرا أم شرا؟ فإذا كانت خيرًا فالحمد لله، وإن كانت شرا فلا ينطق بها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كان**

---

(١) كتاب الآداب، فؤاد الشلهوب (١١٤)، باختصار.

(٢) أخرجه البخاري كتاب الرقائق باب حفظ اللسان (٦٤٧٧). ومسلم كتاب الزهد والرقائق باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨).

(٣) أخرجه البخاري كتاب الرقاق باب حفظ اللسان (٦٤٧٤).

يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[١].

والشيء الملفت للانتباه هنا أن الله ربط بين الإيمان وقول الخير أو الصمت عند إرادة القول الباطل، وهذا دليل على خطورة الأمر.

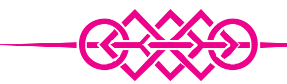
ترك الجدال:

لما يسبب من الشحناء بين المسلمين، وقد ورد عن النبي ﷺ فضل من ترك الجدال فقال ﷺ: «**أنا زعيم بيت في ربض**[٢] **الجنة لمن ترك المراء ولو كان محقا...**»[٣].

التأني في الكلام والتقليل منه وعدم الإسراع فيه:

لأن هذا يؤدي إلى مظنة عدم فهم الكلام على وجهه من لدن المستمع ولذا كان كلام رسول الله لا عجلة فيه. فقد ورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت تصف كلام رسول الله «إن النبي ﷺ كان يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه»[٤]. وفي رواية: «كان رسول الله لا يسرد سردكم هذا»[٥].

فهذه أهم الآداب التي تراعى عند الحديث وهو يخاطب الناس وهي جزء من لفظ أو معنى غض الصوت، ومن مقتضيات هذا الحكم والحكمة الواردة في الآيات على لسان لقمان رضي الله عنه، وهناك آداب أخرى تندرج تحت هذه الآداب.



---

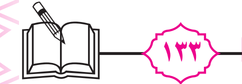
(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب باب (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) (٦٠١٨). ومسلم كتاب الإيمان باب الحث على إكرام الضيف والجار (٤٧).

(٢) أي ما حولها خارجا عنها، تشبيها بالأبنية التي تكون حول المدن. اللسان (٧/ ١٥٢) مادة ربض.

(٣) أخرجه أبي داود كتاب الأدب باب حسن الخلق (٤٨٠٠). وانظر: السلسلة الصحيحة (١/ ٥٥٢) (٢٧٣).

(٤) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ (٣٥٦٧).

(٥) أخرجه البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ (٣٥٦٨). ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي هريرة (٢٤٩٣).



الباب الثالث

الآيات الكونية وعلاقة ذلك بتحقيق العبودية

تمهيد: في أهمية الموضوع

هذا الموضوع من الموضوعات المهمة في السورة فبه بدأت وبه خُتِمَت، ومن أشدها تأثيرًا في النفس، إذ أنه يتعلق بقدرة الله ﷻ وعظيم خلقه وإرادته ونعمته على خلقه، وربط ذلك كله بعبادته سبحانه وإفراده بتلك العبودية دون غيره من المعبودات الناقصة.

والناظر في هذه الآيات بعين البصيرة؛ يجدها آيات تعالج مسألة العبودية لله تعالى، وإثباتها عن طريق إثبات ربوبية الله تعالى، وأنه الرب المنعم والخالق والمدبر لكل شيء، وبمخاطبة العقول وإلزامها بالاعتراف بالعبودية لله تعالى.

فجولة في آيات السورة، نربط بها ما أنعم الله به علينا من نعم كثيرة؛ بما يجب علينا تجاه هذه النعم، من الإيمان الكامل بالله، والعبودية المطلقة، والاستسلام له سبحانه.

والأمر في السورة بالعبودية جاء ببيان النعم التي أنعم الله بها علينا، وأنه - بذلك - المستحق وحده للعبادة، أي أن الله استدل بتوحيد الربوبية على توحيد العبودية، ونوجز بيان ذلك في فصلين:

الفصل الأول: الإيمان بالمشاهد وأثره؛ وتضمن: أن الله ﷻ هو الخالق والمبدع لهذا الكون وغيره لا يستطيع أن يخلق شيئًا. وأن الله ﷻ يمتن على عباده ويذكرهم بنعمه الظاهرة والباطنة، وعلى هذا فهو وحده المستحق للعبادة. وإقامة الحجة على المشركين بأنهم يؤمنون بأن الله هو الذي خلقهم، وأنهم يرجعون إليه في وقت الشدة. وبيان عظيم ملك الله تعالى وعظيم قدرته وعلمه.

الفصل الثاني: الإيمان بالغيب وأحكامه؛ وتضمن: المراد بالغيب وأقسامه. وأهمية الإيمان بالغيب. والوعظ والتذكير بالآخرة. ومفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

الفصل الأول

الإيمان بالمشاهد وأثره

المبحث الأول

أن الله ﷻ هو الخالق والمبدع لهذا الكون وغيره لا يستطيع أن يخلق شيئًا

قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١ ﴾.

«يبين الله ﷻ قدرته العظيمة على خلق السماوات والأرض فهو سبحانه خلق السماوات بغير عمد نراها، وجعل الله سبحانه في الأرض جبال أرست الأرض وثقلتها لئلا تضطرب بأهلها، ثم خلق الله في الأرض أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها، ولا يحصى عددها إلا الله تعالى، وكلها مسخرة لبعضها، وكلها لها صفاتها الخاصة بها التي تجعلها تتكيف مع واقعها، وكل واحد لها رزقها الخاص بها الذي كتبه الله لها، فيا لها من قدرة ويا لها من عظمة في الخلق والتدبير.

وليس هذا فقط، بل إن الله سبحانه لما قرر: أنه الخالق لهذا الكون والمخلوقات التي تعيش فيه؛ نبه سبحانه أنه هو الرزاق بقوله: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ أي: أن الله خلق من ماء السماء الذي ينزل على الأرض من كل زوج من النبات كريم أي حس المنظر»[١].

ثم يأتي التحدي من الله تعالى للمشركين بقوله: ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ ﴾ وحده لا شريك

---

(١) تفسير القرآن العظيم- ابن كثير (٦/ ٣٣٣).

له: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ[1]، ومعناه: فأين خلق الذين تعبدون من دون الله من الأصنام والأنداد والأشجار وغيرها من المعبودات؟؟ ماذا خلقت هذه المعبودات من دون الله لكي تعبدوها؟!!!

ثم يشنع الله بهم، ويقول عن الذين يعبدون غيره من الأنداد والأصنام: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ١١﴾ أي: أن الذي ينكر حقيقة الخلق والرزق؛ أنها من الله تعالى، وأنه سبحانه المستحق للعبادة، دون سواه، لأنه هو الخالق الرازق المدبر، فهو: من الظالمين، الذين ظلموا أنفسهم؛ بأن لم يستخدموا عقولهم في معرفة الحق، فهم في جهل وعمى عن الحق، الظاهر الواضح الذي يرونه كل يوم، ولا خفاء فيه.

وفي هذا الجواب «إضراب عن تبكيتهم بما ذكر، إلى التسجيل عليهم بالضلال البين، المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقة، لاستحالة أن يفهموا منها شيئًا فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه، أو يتأثروا من الإلزام والتبكيت فينزجروا عنه، ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على أنهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه، ومعتدون عن الحد، وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد»[2]. فقرّر ظلمهم أوّلاً، وضلالهم ثانيًا.

فوصفهم الله تعالى بأنهم ظالمون. أي: مشركون بالله لأنهم يعبدون معه غيره، فهم قد ظلموا أنفسهم بذلك فأصبحوا ﴿فِي ضَلَٰلٍ﴾ أي: جهل وعمى وخسران فهم في جور عن الحقّ، وذهاب عن الاستقامة[3]. ثم وصف الله تعالى هذا الضلال بأنه: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: «واضح ظاهر لا خفاء فيه، يبين لمن تأمله، ونظر فيه وفكّر بعقل أنه ضلال لا هدى»[4].

---

(١) فتح القدير (٤/ ٢٢٨).

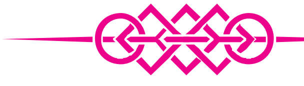
(٢) روح المعاني (٢١/ ٨٢).

(٣) جامع البيان (١٨/ ٥٤٤).

(٤) المصدر السابق.

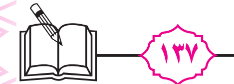
«فهو بين أو مبين للعاقل أنه ضلال، وهذا لأن ترك الطريق والحيد عنه ضلال، ثم إن كان الحيد يمنة أو يسرة فهو لا يبعد عن الطريق المستقيم مثل ما يكون المقصد إلى وراء فإنه يكون غاية الضلال، فالمقصد هو الله تعالى، فمن يطلبه ويلتفت إلى غيره من الدنيا وغيرها فهو ضال، لكن من وجهه إلى الله قد يصل إلى المقصود ولكن بعد تعب وطول مدة، ومن يطلبه ولا يلتفت إلى ما سواه يكون كالذي على الطريق المستقيم يصل عن قريب من غير تعب. وأما الذي تولى لا يصل إلى المقصود أصلًا، وإن دام في السفر»[(١)].

والخلاصة أنه تعالى: «وصف ضلالهم بالوضوح والظهور، ومن كان هكذا فلا يعقل الحجة ولا يهتدي إلى الحق»[(٢)]. فهنا أثبت الله وجوب العبودية له، عن طريق إثبات أنه سبحانه هو الخالق لهذا الكون والمدبر لشؤونه.



(١) التفسير الكبير، الرازي (٢٥/ ١٤٥).

(٢) فتح القدير (٤/ ٢٢٨).



المبحث الثاني

الله ﷻ يمتن على عباده ويذكرهم بنعمه الظاهرة والباطنة، وعلى هذا فهو وحده المستحق للعبادة

المطلب الأول

المنّة بتسخير ما في السموات الأرض والنعم الظاهرة والباطنة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

هنا يمتن الله على خلقه بأنه سخر لهم ما في السماوات والأرض، وهذا ربط بين تسخير السموات وتسخير الأرض لخلقة فالسياق هنا: يعرض المنة من زاوية التناسق بين حاجات الإنسان على الأرض، وتركيب هذا الكون، مما يقطع بأن هذا التناسق لا يمكن أن يكون فَلْتَة أو مُصَادفة، فجعل الله ﷻ للمخلوق أن ينتفع بشعاع الشمس، وضوء القمر وهدي النجوم، وبالمطر، والهواء، والطير وغيرها، وأيضا المخلوق له أن ينتفع من الأرض بكل ما فيها من نبات، وماء، وحيوان، سواءٌ بالأكل، أو الركوب أو غيرها، وله أن ينتفع بكنوزها الموجودة في داخلها من معادن وذهب وحديد وغيرها.

والإنسان ينتفع بهذا الكون كله، بأشياء يعلمها، وأشياء لا يعلمها، ولم يصل علمه إلى معرفتها حتى الآن، ولكن الانتفاع قائم له بها، وهذه مِنَّةٌ من الله على عباده.

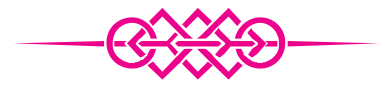
أما قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾. ففيه لفتة جميلة: كأن النعمة شيء يكسو الإنسان من أوله إلى آخره، ولكنه ثوب عجيب يكسو الظاهر والباطن في نفس الوقت، ومع ذلك فالناس لا يشكرون الله ولا يعبدونه حق عبادته!!

أما نعم الله الظاهرة فهي: الرزق، والصحة، والأولاد، وتسخير الكون كله للإنسان، مما يظهر ويبين لكل متأمل.

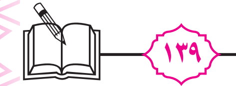
والنعم الباطنة التي أنعم الله بها علينا كثيرةٌ جدًا، ومنها: ستره للعيوب، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب غذاء وراحة وهداية للقلوب(١). وهداية الخلق للحق، وتيسير أمر الدين عليهم، وجعل سعادتهم فيه.. إلخ.

فليست النعمة تكون ظاهرة فقط، ولكن تكون داخلية، فالذي لا يستفيد من نعمة الباطن لا فرق بينه وبين المخلوقات الأخرى؛ من الحيوانات والأحجار والجبال، بل هو أضل منها!! قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١].

ولكن مع تبين وظهور هذه النعم فإن هناك من ينصرف!! ومن يجادل في الله بغير علم ولا هداية ولا كتاب رباني!!، فيا تُرى بعد هذه النعم من الله ماذا يُقَال لهؤلاء الجاحدين المجادلين؟!!



(١) قد تعددت الأقوال في معنى الآية ولكنا تدور حول المعنى الذي ذكرناه - انظر: الدر المنثور (١١/ ٦٥٤).



المطلب الثاني

المنّة بتسخير الشمس والقمر وجعل الليل والنهار

وتتأتي منّة أخرى من الله على خلقه في هذه السورة يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: «يأخذ من الليل في النهار، فيطول النهار ويقصر الليل، ويكون هذا في زمن الصيف، ثم يسرع في النقص فيطول الليل ويقصر النهار وذلك في الشتاء»(١).

إن مشهد دخول الليل على النهار، والنهار على الليل مشهد عجيب حقًا، ولكن مع كثرة رؤيتنا له ألفناه ولم نعد نَحُسَّ به، فهذا الدخول بانتظام فيا ترى لو كان الليل يأتي فجأة والنهار يأتي فجأة بدون تدرج ماذا كان سيحصل لنا، إن هذا التدرج له حكمة يعلمها الله تعالى.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢].

وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ١٢].

وأما قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. لأجل مسمى: أي إلى غاية محدودة، أو إلى يوم القيامة، وكلا المعنيين صحيح(٢).

---

(١) تفسير القرآن العظيم -ابن كثير (٦/ ٣٥٠).

(٢) المرجع السابق.

وهذه الشمس وهذا القمر وحاجة الناس إليهما ومنافعها لهم وطلوعهما وذهابهما، فيها من الحكم الباهرة ما يجعل الفطرة السليمة تستسلم أمام هذا الإبداع الرباني الكبير. ولولا تسخير الرب الرحيم لهما لما انتفع بها الخلق بحال من الأحوال فهما آيتان وتسخير كل منها آية، وجريانهما آية، ومنافعهما وآثارهما آية أيضًا، وهما ظاهرتان لا ينكرهما إلا أعمى البصر والبصيرة.

وأيضا علم الله سبحانه بحالنا لا يخفى عليه سبحانه إذ أنه هو الذي خلق هذا الكون وأبدعه فهو أعلم به وبما يصلحه وبما يدور فيه وهو الذي قدر هذا فهو العليم الخبير سبحانه.

والنتيجة المطلوبة منكم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾. أي: «إنما يظهر لكم آياته لتستدلوا بها على أنه هو الحق، أي الموجود الحق، الإله الحق»[١].

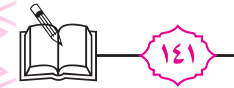
وبعد أن قرر الله هذا التسخير وهذه القدر يقرر الله سبحانه أن كل هذه الأدلة تبين أنه هو الحق. نعم فالإله الحق هو الذي يخلق ويدبر ويقدر ويبدع ويعلم بكل شيء وبم يصلح عبيده.

ثم يأتي قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾ فبعد أن أثبت الله لنفسه الألوهية، قرر أن غيره من الآلهة هي الباطل، لأنها مخلوقة من مخلوقاته لا تستطيع أن تخلق ولا تبدع ولا تقدر على التدبير، وأن الله هو العلي الكبير: «الذي هو أكبر من كل شيء فكل شيء خاضع حقير بالنسبة إليه»[٢].



(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.



المطلب الثالث

المنّة بتسخير البحر

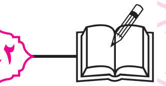
ثم تأتي منّة أخرى من الله تعالى على عباده، وهي تسخير البحر لهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾﴾.

يمتن الله على خلقة بتسخير البحر لهم، حيث أن هذه الفلك تجري في البحر بقدرة الله سبحانه فهو الذي قدر أن ترتفع هذه السفينة على البحر ثم هو سبحانه جعل من هذا الهواء محركًا لها تسخيرًا منه سبحانه لهذا البحر لخلقه ليقضوا مصالحهم، وقبل ذلك ليريهم هذه النعم وهذا الإبداع لكي يؤمنوا به ويعبدوه حق عبادته.

فلا يتعظ بهذه الآيات إلا الصابرون والشاكرون كما في الآية، الصابرون على هول البحر وما يحصل فيه من مشقة، والشاكرون الله تعالى أن سخر لهم هذا البحر ليقضوا حوائجهم وحوائج أهليهم وعلى نجاتهم من هول البحر.

أوضح الله سبحانه منته على خلقه، فهو المستحق وحده للعبادة دون سواه، لأنه لا أحد من المعبودات من دون الله قادر على أن يوفر أي نعمة من هذه النعم للذين يعبدونهم. قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣].

ووصف الله حال الناس وهم في البحر عامة، والمشركين به خاصة فقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: ٢٢ - ٢٣].



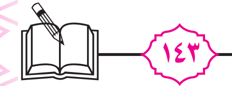
وقد هدد الله تعالى وتوعد بالإغراق لكل من لم يلتزم أمره وابتعدوا عن إفراده بالعبادة كما فعل مع فرعون وقومه وقوم نوح فقال تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾ [الإسراء: ٦٦ - ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يس: ٤١ - ٤٣].

وفيها من الوعيد الشديد ما يرعب كل ذي لب حازم حكيم فقد توعد مالك الملك الذي لا يعجزه شيء أن يحول ما هو نعمة منه تيسيرًا على خلقه إلى أداة إهلاك وعذاب لا ينجيهم منه أحد البتة مهما كان حوله وطوله، وظنه بنفسه، وغروره بما أوتي من حول أو قوة. نسأل الله العفو والعافية فلولا رحمة الله وانظاره لعباده لعلهم يتوبوا ويرجعوا لوقع بهم العذاب الغليظ المباشر قال تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس: ٤٤].

وشبّه الله تعالى لعباده شدة ظلمة الكفر بظلمة البحر كثير الأمواج، ولأنهم يعرفونها جيدًا ويتصورونها جعلها الله مثلًا لظلمة الكفر إنذارًا لهم وتحذيرًا من الوقوع فيه، وبيانًا لأهمية التأمل والتفكر في آيات الله الكونية المحيطة بالإنسان في كل آنٍ، قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: ٤٠].

«إنه مثال رائع لحياة وأعمال أولئك الذين سلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، فهم يعيشون في حيرة وقلق واضطراب، وظلمة تغلف عقولهم ونفوسهم، تتقاذفهم أمواج شهواتهم المضطرمة في نفوسهم، وإن هذا المثال ليبين شدة افتقار الإنسان إلى هداية الله تعالى وأحكام شريعته»[١].

(١) من موضوعات سور القرآن - سورة النور (ص٧٤).



المبحث الثالث

إقامة الحجة على المشركين بأنهم يؤمنون بأن الله هو الذي خلقهم وأنهم يرجعون إليه في وقت الشدة

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥)﴾.

فهم يعترفون بأن الله خلقهم ولكن ما فائدة علم بلا عمل؟ وقول بلا فعل؟

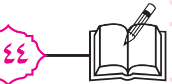
«إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والأرض وحده لا شريك له، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها خلق له وملك له»[1].

وهذا الاعتراف نابع من فطرتهم التي فُطروا عليها، وأيضا مما يشاهدونه من بديع هذا الصنع، فهذه السماوات مرفوعة بغير عمد نراها، ننتفع بها ونحن على الأرض، وهذه الأرض قائمة مقدر فيها أقوات الناس، وهذا التقدير من الله دقيق حتى إنه لا يوجد شيء في هذا الكون إلا وله فائدته وعمله في هذا الكون، فهو كون متناسق، فكل هذا يدل على أن هذا الكون لم يخلق صدفةً!! بل خلقه عليم خبير. لأن الفطرة دلت على ذلك أولًا، والعقل والواقع كذلك ثانيًا.

لكن أولئك الذين كانوا يواجهون عقيدة التوحيد بالشك، ويقابلون دعوة الرسول ﷺ بالجدال والعنف، لم يكونوا يستطيعون أن يزيفوا منطق فطرتهم حين تواجه بالدليل الكوني الممثل في وجود السماوات والأرض، وقيامها وإبداعها، أما العين فلا تحتاج أكثر من النظر. ثم إنهم لم يتلجلجوا في الجواب عن السؤال: ﴿مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؟؟ وجوابهم: ﴿اللَّهُ﴾ ولذلك يأتي التوجيه الرباني لرسول الله بأن يقول: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحمد لله على وضوح الحق في الفطرة، والحمد لله على هذا

---

(١) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير (٦/ ٣٤٨).



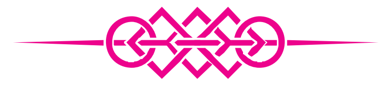
الإقرار القهري أمام الدليل الكوني.

ثم يأتي دليل الفطرة مرة أخرى ليواجه المشركين في عدم عبادة الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

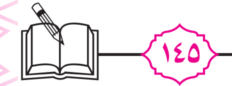
والله هنا يحكي عن المشركين أنهم عندما يكونون في الشدة وهم في البحر والأمواج عالية فليس لهم من ينجيهم من هذا البحر إلا من خلق البحر وخلقهم فهم يدعون الله تعالى مخلصين له الدين علما منهم أنه هو الذي سينجيهم منه، وأنه القادر على ذلك دون ما سواه من المعبودات.

ولكن بعد أن ينجيهم الله تعالى ينقسمون إلى فريقين فريق: يظل شاكرًا داعيًا الله ولكن ليس بالشكر والدعاء الكامل الذي يريده الله[1]، والفريق الآخر هو: الذي يجحد بآيات الله وبنعمه فهو صنف غَدَّار كفور بنعمة الله تعالى.

فهم آمنوا بالله وحده وقت الرخاء وكفروا به في وقت الشدة علما منهم أن الله هو المستحق للعبادة وأن أصنامهم وأندادهم من دون الله لا تنفعهم شيء.



(١) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير (٦/ ٣٥١).



المبحث الرابع
بيان عظيم ملك الله تعالى وعظيم قدرته وعلمه

قال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ ﴾ أي: أن السماوات والأرض خلق الله وملكه في عظمتها ودقتها وإبداعها، والله الغني عما سواه، وكل شيء فقير إليه، وهو سبحانه له الحمد في السموات والأرض على ما خلق وشرع.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

«يخبر تعالى عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، فلو أن جميع أشجار الأرض؛ جُعلت أقلامًا، وجعل البحر مدادًا، ومدَّه سبعة أبحر معه، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله: لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر ولو جاء أمثالها مدادًا»(١).

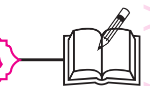
«وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى، أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده، أفضل نعمة، أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله، لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيها تستنير به قلوبهم، وتنشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: «**لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»(٢) وإلا فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه في الأفهام

---

(١) تفسير القرآن العظيم - ابن كثير (٦/ ٣٤٨).

(٢) صحيح مسلم كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود (٤٨٦).



والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر، أضعافا كثيرة، والبحور لو امتدت بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة، وأما كلام اللّه تعالى، فلا يتصور نفاده، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه لا نفاد له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته: قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم: ٤٢].

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخريته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد، بقلبه ولسانه، فاللّه تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية.

واللّه في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه اللّه لكلامه، ليدرك العباد شيئا منه، وإلا فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر تعالى عزته وكمال حكمته فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي: له العزة جميعًا، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاها للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم، وتصرف فيهم، ودبرهم، وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره»[١].

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل فقال تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

«التفات من الغيبة إلى الخطاب، لقصد مجابهتهم بالاستدلال المُفْحِم»[٢]، «فما خلق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خلق نفس واحدة، والجميع

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٦٥١).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٨٣).

هين عليه»[١] ﷻ. لأن الرب ﷻ يخلق بمجرد توجه المشيئة إلى الخلق، ولذا يستوي عنده الواحد والكثير، فهو لا يبذل جهدًا محدودًا في خلق كل فرد، وعندئذٍ يستوي خلق الواحد وخلق الملايين، وبعث النفس الواحدة وبعث الملايين، إنما هي كلمة المشيئة: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: ٨٣].

وجملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾: «إمَّا واقعة موقع التعليل لكمال القدرة على ذلك الخلق العجيب، استدلالًا بإحاطة علمه تعالى بالأشياء والأسباب وتفاصيلها وجزئياتها، ومن شأن العالم أن يتصرف في المعلومات كما يشاء، لأن العجز عن إيجاد بعض ما تتوجه إليه الإرادة إنما يتأتى من خفاء السبب الموصل إلى إيجاده، وإذ قد كان المشركون أو عقلاؤهم يسلمون أن الله يعلم كل شيء جعل تسليمهم ذلك وسيلة إلى إقناعهم بقدرته تعالى على كل شيء، وإمَّا واقعة موقع الاستئناف البياني لما ينشأ عن الإخبار بأن بعثهم كنفس من تعجب فريق ممن أسروا إنكار البعث في نفوسهم»[٢].

ومما سبق يُعلم أن الله ﷻ خلق هذا الكون كله وأبدع فيه سبحانه، وخلق الخلائق وتكفل برزقهم، وسخر كل ما في السموات والأرض للإنسان، وأسبغ على الإنسان كل النعم الظاهرة والباطنة، أفلا يكون من حق الله تعالى أن يعبدوه شكرًا له على هذه النعم!! وأن يكون الله وحده هو المستحق للعبادة دون سواه؟!!

الإجابة ستكون للعقلاء: (بلى). ولكن أكثر الناس لا يعقلون ولا يشكرون.

يخلق الله ويُعْبَد غيره، ويرزق ويُشْكَر سواه أليس هذا من الظلم؟ ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾.



(١) تفسير ابن كثير – ابن كثير (٦/ ٣٤٩).

(٢) التحرير والتنوير (٢١/ ١٨٤).

الفصل الثاني

الإيمان بالغيب وأحكامه

المبحث الأول

معنى الإيمان بالغيب وأقسامه

أولاً: معنى الإيمان بالغيب:

الغيب هو: «ما لا يدرك بالحواس مما أخبر به الرسول ﷺ صريحا بأنه واقع أو سيقع مثل وجود الله وصفاته، ووجود الملائكة وأصنافها وأعمالها، والشياطين وأصنافهم وأعمالهم، وأشراط الساعة وما استأثر الله بعلمه»(١).

فهو: «التصديق الذي لا يعتريه شك، بكل ما أخبر به الرسول ﷺ، عن الله وأسمائه وصفاته، وعن ملائكته وكتبه ورسله والأقوام الغابرة، وعمّا تحار فيه العقول من الأحكام أو الحِكَم، وأشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والصراط والميزان والجنة والنار، وغيرها من الأمور التي ستحدث»(٢).

ثانيًا: أقسام الغيب وأنواعه:

يمكن تقسيم الأمور الغيبية إلى عدة أقسام:

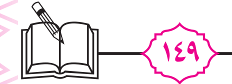
القسم الأول: غيبيات لا ندركها ولا يجوز لنا البحث عن حقيقتها، ويدخل في هذا: الإيمان بكل أسماء الله وصفاته وقدرته وعظمته وعظم علمه سبحانه، والإيمان بالملائكة الكرام وبصفاتهم التي أخبرنا بها رسول الله صل الله عليه وسلم، وحقيقة الجنة والنار وما فيهما من نعيم أو عذاب.

القسم الثاني: غيبيات أخبرنا بها رسول الله ﷺ أنها وقعت، ونحن لم نرها ولم

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٢٨). تفسير قوله تعالى: (الذين يؤمنون بالغيب).

(٢) هذا التعريف حاولت أن أصيغه من بين تعاريف كثيرة جدًا كل منها يعرف الغيب من جهة واحدة.



نشاهدها، ولكن نؤمن بها تصديقا لرسول الله، لأنه لا يأتي بهذا العلم من قبل نفسه، وإنما كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٤]. وذلك مثل: قصص الأنبياء والرسل السابقين، والكتب التي أنزلها الله تعالى عليهم. وأخبار الأمم الأخرى.

القسم الثالث: غيبيات أخبر النبي ﷺ أنها ستقع في المستقبل، وهذه علينا الإيمان بها وأنها ستقع كما أخبر بها رسول الله ونستعد لها، مثل: سكرات الموت، والقبر وأهواله، وأشراط الساعة الكبرى والصغرى، والبعث من القبور، والحشر وما يكون في يوم الحشر، والحساب والميزان والصراط والحوض والجنة والنار... وغيرها مما أخبر النبي ﷺ أنها ستقع.

القسم الرابع: غيبيات استأثر الله بعلمها فلا يعلمها إلا هو ﷻ، وهي التي أشار إليها الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ۝٣٤﴾.

فهذه الأمور نحن مطالبون بالإيمان بأن الله تعالى هو الذي يعلمها، ولا أحد يعلمها غيره، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ونفي علم من يدعي علم الغيب من السحرة والكهنة والمشعوذين والمنجمين وغيرهم ممن يدعي علم الغيب. قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥﴾ [النمل: ٦٥] وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

وسيأتي الكلام عن هذا القسم في المبحث الثالث إنشاء الله تعالى.



المبحث الثاني

أهمية الإيمان بالغيب

تبرز أهمية الإيمان بالغيب في عدة أمور، أهمها:

١- الإيمان بالغيب هو الإيمان بالدين كله:

وذلك «لأن الإيمان بالغيب اعتقاد ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوي، فإذا آمن به المرء تهيأ لسماع دعوة الرسل وللنظر فيما يبلغون عن الله تعالى، فسهل عليهم إدراك الأدلة، وأما من يعتقد أنه ليس وراء عالم الماديات عالم آخر فهو حينئذٍ لا يؤمن بالله ولا بعالم الآخرة»(١). قال شيخ الإسلام: «والإيمان بالغيب لا يتم إلا بالإيمان بجميع ما أنزل الله تبارك وتعالى»(٢).

٢- الإيمان بالغيب ارتفاع عن مرتبة الحيوانية التي لا تؤمن إلا بما تشاهده:

لأن الإيمان بالغيب هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيتجاوز مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما تدركه حواسه إلى مرتبة الإنسان؛ الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس أو الأجهزة التي هي امتداد الحواس.

٣- الإيمان بالغيب أول صفات المتقين بل وأساسها:

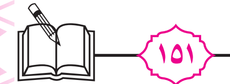
قال الله تبارك وتعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ١ - ٥].

وقد بين الله ﷻ أن من كمال البر والخير والفلاح في الإيمان بالغيب ومدحهم بعد ذلك بالصدق والتقوى فقال تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ

---

(١) التحرير والتنوير (١/ ٢٣٠) بتصرف.

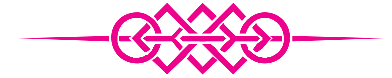
(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (١٣٧).



وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧].

٤- الإيمان بالغيب سبب من أسباب الهداية والفلاح والفوز:

قال تعالى عن عباده المؤمنين بالغيب: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].



المبحث الثالث

الوعظ والتذكير بالآخرة

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾.

«في هذه الآيات يذكر الله تعالى الناس بيوم المعاد ويأمرهم بتقواه والخوف منه والخشية من يوم القيامة حيث أن الوالد لو أراد أن يفدي ابنه بنفسه لم يقبل منه والمولود لو أراد أن يفدي والده لم يقبل منه»[١].

ففي هذه الآية بعض الإشارات التي يجب التأمل فيها وهي:

١- شمولية الخطاب القرآني لكل الناس رحمة بهم:

«ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾«نداء لجميع الناس: مؤمنهم وكافرهم[٢]، إشارة إلى أن دين الإسلام دين الإنسانية، ينظر إليها نظرة شمولية راحمة تقودها سبل السعادة والسلام»[٣].

٢- الوصية بتقوى الله وخشيته:

«وفي الوصية بتقوى الله إشارة إلى خشية الله في جميع الأحوال، وهذه وحدها جماع مكارم الأخلاق وخلاصة صالح العمل»[٤].

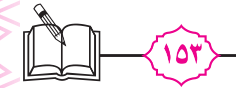
---

(١) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير (٦/ ٣٥١).

(٢) ذكر ذلك الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٨٠).

(٣) من لطائف التفسير (٣/ ١١٢).

(٤) من لطائف التفسير (٣/ ١١٣).



٣- يوم القيامة الكل يقول: نفسي نفسي، حتى مع أقرب قريب:

فهذا اليوم تقطع فيع أواصر الرحم والنسب، وينشغل الوالد عن الولد، ويحول بين المولود والوالد، وتقف كل نفس فيه وحيدة فريدة مجردة من كل عون ومن كل سند، موحشة من كل قربى ومن كل وشيجة، فهنا لا يجزي أحدٌ عن أحدٍ، ولا ينفع أحدٌ أحدًا إلا عمله وكسبه.

إن علاقة الأبوة والبنوة من أعمق العلاقات البشرية كافة، ومن أشدها تأصلا في النفس، ولو أن أحدًا قدم نفسه فداء لأحدٍ، فربما كان هذا الوالد يفدي ولده أو الولد يفدي والده، ومع ذلك فهناك في ذلك اليوم تتفكك العلاقات كلها، وينتفي الفداء كذلك!!

فأي هول ذلك؟ وأي رهبة؟ ألا يستحق ذلك اليوم الرهيب أن يعمل الإنسان حسابه، ويُعِدَّ له عُدَتَه؟ ألا يستحق أن يخشاه فيعمل على النجاة من هوله؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

و«في هذه الآية إشارة دقيقة إلى أن أكثر ما يجر الإنسان إلى الحرص والظلم والبخل واقتحام السحت هو الحرص على الولد. والقرآن في هذه الآية الكريمة يُذَكِّر المؤمنين أن في الآخرة لا تجدي القربات ولا تنفع الأنساب، هناك لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يجزي والد عن ولده، ولا ولدٌ عن والده، هناك: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝٢﴾ [الحج: ٢]»[1].

٤- وعد الله حق:

قال تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٣٣﴾: فلا يخلف ولا يتخلف، ولا مفر من مواجهة هذا الهول العصيب، ولا مفر

---

(١) من لطائف التفسير (٣/ ١١٢).

من الحساب الدقيق والجزاء العادل الذي لا يغني فيه والد عن ولد ولا مولود عن والد.

٥- التحذير من الدنيا وإغراءاتها وتنسيتها الآخرة:

قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾. «أي لا تلهينكم الحياة الدنيا بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة، والغرور هو الشيطان كما ورد ذلك عن ابن عباس ومجاهد[(١)] وغيرهم فإن الشيطان يغري ابن آدم ويعده ويمنّيه، وليس من ذلك شيء بل كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: ١٢٠]»[(٢)].

«وفيه إشارة إلى أن أكثر ما يُرْدِي الإنسان غروره بالأماني تُلْهِيه عن صالح العمل، وتنسيه الموت والجزاء، وهذا الغرور يأتي من مصدرين: أولهما: متاع الدنيا وزينتها من مال وجاه ومنصب، أما المصدر الثاني للغرور: فهو الشيطان الغرور يزين للمرء كل فاحشة ويجمل في عينه سبل الغواية والمعصية»[(٣)]. **والمعنى** لا تغرنكم الحياة الدنيا وما فيها من: متاع يلهي، أو شُغْلٍ ينسي أو شيطانٍ يوسوس في الصدور، فالدنيا مهلة محدودة وهي ابتلاء واستحقاق للجزاء.

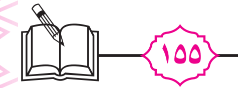


---

(١) جامع البيان (١٨/ ٥٨٣).

(٢) روح المعاني (٢١/ ١٠٨).

(٣) من لطائف التفسير (٥/ ١١٣).



المبحث الرابع
مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾ ﴾.

«هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك، ومن شاء الله من خلقه، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه الله تعالى سواه، ولكن إذا أمر بكونه ذكرًا أو أنثى أو شقيًا أو سعيدًا عَلِمَ الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه، وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غدًا في دنياها وأخراها، ولا تدري نفس أين تموت في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان، لا علم لأحد بذلك»[(١)].

عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**مفاتح الغيب خمسٌ لا يعلمها إلا الله: لا يعلم ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله**»[(٢)].

وقد أورد الإمام البخاري في كتاب التفسير تحت هذه الآية حديث جبريل الذي سأله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفي آخره سؤال عن الساعة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها: إذا ولدت الأمة ربتها، فذاك من أشراطها، وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس، فذاك من أشراطها، في خمسٍ لا يعلمهن إلا الله:** ﴿ إِنَّ

---

(١) تفسير القرآن العظيم – ابن كثير (٦/ ٣٥٢).

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قول الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ ﴾ (٤٦٩٧).

ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ ...﴾[1].

قال ابن عباس رَضِوَاللَّهُعَنْهُ: «هذه الخمس لا يعلمها إلاّ الله تعالى، ولا يعلمها ملك مقرب ولا نبي مرسل، ومن ادعى أنه يعلم شيء من هذه فقد كفر بالقرآن لأنه خالفه»[2].

وقد يعرف بطول التجارب أشياء من ذكورة الحمل وأنوثته إلى غير ذلك ولكن قد تختلف التجربة وتنكسر العادة ويبقى العلم لله وحده»[3].

«وقد يقول قائل: إن كثيرًا من الناس يعرف شيئًا من هذه الأمور بالتجربة، فهناك أهل الزراعة يعلمون الأوقات الممطرة، ومن الأطباء من يعلم كون الجنين ذكرًا أم أنثى، ومن الناس من يرتب لنفسه جدول أعمال ليومه القادم، لكن هذا لا ينقض شيئًا من الآية الكريمة، لأن جميع ما ذكرناه من التجارب ليس علمًا يقينيًا، والطبيب إذا علم أن ما في الرحم ذكرًا أو أنثى فإنه لم يعلم كل ما في الرحم لأنه عرف شيئًا وغابت عنه أشياء: ما طبيعة هذا الولد؟ وما استعداداته الفطرية؟ وما شكله؟ وما لونه؟ ومزاجه وعقليته؟ وإلى أي شيء هو مهيأ؟ وهذا يعني أن مجرد معرفة الجنس لا تشكل أي معرفة»[4].

والله سبحانه يقرر أنه سبحانه الذي ينزل الغيث، لأنه سبحانه هو المنشئ للأسباب الكونية التي تكونه وتنظمه فاختصاص الله في الغيث هو اختصاص القدرة.

«ومعنى حصر هذه المفاتيح في هذه الخمس أنها هي الأمور الغيبية المتعلقة بأحوال الناس في هذا العالم، وأن التعبير عنها بالمفاتيح أنها تكون مجهولة للناس فإذا وقعت فكأن وقوعها فتح لما كان مغلق. وهذه الغيبيات في عالم البشر، أما في العوالم الأخرى في الحياة الآخرة فالمغيبات عن علم الناس كثيرة وليست لها مفاتيح علم في هذا العلم»[5].

---

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ ﴾ (٤٧٧٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٨٢).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٨٢).

(٤) من لطائف التفسير (٣/ ١١٤) بتصرف.

(٥) التحرير والتنوير (٢١/ ١٩٨).

وإن النفس البشرية لتقف أمام هذه الغيوب عاجزة خاشعة، تدرك بالمواجهة حقيقة علمها المحدود، وعجزها الواضح ويتساقط عنها غرور العلم والمعرفة المدعاة. وتعرف أمام ستر الغيب المسدل أن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلًا وأن وراء الستر الكثير مما لم يعلمه الناس، ولو علموا شيئًا آخر فسيظلون واقفين أمام ذلك الستر لا يدرون ماذا سيكون غدًا بل ماذا سيحصل اللحظة التالية.



الخاتمة

الحمد رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، محمد ﷺ وعلى من استن بسنته واقتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

هذا هو القرآن منهج حياتنا الدنيوية، ويقودنا إلى حياة أخروية فيها السعادة والهناء، والرضا بفضل بديع الأرض والسماء. منهجٌ كاملٌ شاملٌ لجميع شؤون الحياة، فهو عقيدة وعبادة، وتعامل وأخلاق، وعلم وعمل، وصبر ورضا، وغير ذلك من شؤون الحياة، علمنا ذلك من خلال عرضنا لهذه السورة العظيمة، التي خاطبت العقول والقلوب، خاطبت المؤمنين والكافرين، وحاجّت المنكرين المستكبرين، وربت العقلاء المتفكرين في آيات رب العالمين.

نخرج من هذه السورة بعد هذا العرض الموجز لجوانبَ منها، نخرج بفوائد جمةٍ، وأخلاقٍ متعددةٍ، وحججٍ مقنعةٍ، وآياتٍ باهرةٍ، وحِكمٍ متميزةٍ.

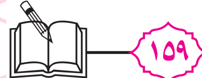
أولًا: تبين من خلال الباب الأول في عرض آيات هذه السورة (التأثر بآيات الله المتلوة والمشاهدة):

١- أن هناك من خلق الله من يتأثر بآيات الله فيكون التأثر واضحًا على جميع تصرفاته، وشخصيته الإسلامية متميزة عن أي شخصية أخرى، وتجعل لهم قيمة عند الخلق، وقبل ذلك عند الخالق جل وعلا.

٢- أن الذين لا يتأثرون بآيات الله، ولا يقيمون لها اعتبارًا، ويستبدلونها بكل ما يبعدهم عن هديها، فأولئك ليس لهم قيمة في مجتمعهم ولا في آخرتهم.

٣- هذان صنفان متقابلان:

- هذا يشتري الهدى الرباني والحديث الحكيم الموصل إلى الخير.. وذاك يشتري لهو الحديث.



- هذا يشتري الهدى ليهتدي به ويهدي به الناس.. وهذا يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله.

- هذا يتخذ آيات الله موعظة وحكمة ومنهجًا.. وهذا يتخذها هزوًا ولعبًا.

- هذا تتلى عليه آيات الله فيقبل عليها بكل قلبه متعلمًا عاملًا.. وهذا تتلى عليه فيولى مستكبرًا.

- هذا يؤمن بآيات الله الكونية ويتأثر بها.. وهذا يكفر بها ويجادل في الله بغير علم.

- هذا صابرٌ شاكرٌ لله على نعمه.. وهذا كافر بنعم الله غَدَّارٌ فيما يعد به.

٤- ويوم القيامة يوم النتاج والجزاء تكون المحصلة من جنس العمل: هذا له جنات النعيم.. وهذا له عذاب غليظ.

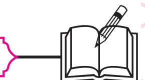
وهكذا يكون الناس في تلقي آيات الله المشاهدة والمتلوة، فيا تُرَى من أيِّ فريقٍ أنت؟!.

ثانيًا: تبين من خلال الباب الثاني في عرض آيات وصايا لقمان في السورة أمورٍ أهمها:

١- نبه الله تعالى في هذه السورة على أخلاق هي عماد الأخلاق، ومنها تنبثق وتترتب عليها جميع الفضائل والمحامد، فلنتأمل في هذه الأخلاق: خُلُق الشكر، وحماية حمى التوحيد، وبر الوالدين، وإقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، والقصد في المشي، وخفض الصوت.

٢- الأخلاق الـمُوصى بها؛ هي أخلاق لا إله إلا الله، أخلاق التوحيد، وهي أخلاق العبادة، فإنك ترى أن الله تعالى ضم للأخلاق: الأمر بالتوحيد وهو عقيدة، والشكر والصلاة وهما عبادة، ليبين لنا أن هذه أخلاق أيضًا ولا تتم على أكمل وجه إلا إذا تمت الأخلاق، فلنتأمل هذه الأخلاق وتناسقها في الآيات لنرى ترابطها وشمولها وأهميتها.

٣- تواردت الوصيّة بهذه الأخلاق النصوص الشرعيّة، وأقوال وأعمال الصالحين، وهي أسباب للنجاح والسعادة والرفعة في الدنيا والآخرة.



ثالثًا: تبين من خلال الباب الثالث في عرض الآيات الكونية وعلاقته بتحقيق العبودية أمورٍ أهمها:

١- يبين الله تعالى في هذه الآيات أسس التوحيد، بحجة ظاهرة، يخاطب فيها العقول والقلوب، عن طريق بيان قدرته وعظمته ونعمته واستحقاقه بذلك للعبادة وحده لا شريك له.

٢- ثم ربط عباده بالغيب الذي يجعلهم يطبقون ما تعلموه من هذه الآيات، فالجزاء والحساب هو الحافز على العمل والاجتهاد.

٣- وهذا الجزاء والحساب غيبٌ، ينبهنا عليه ربنا ولا نعلم كنهه وكيفيته إلا بما أخبرنا الله به وأخبرنا به رسوله ﷺ، لأن عقولنا الضعيفة الضيقة لا تستطيع الإلمام بهذا الغيب وكنهه، ولكن نحن مطالبون بالعمل، ولسنا مطالبون بمعرفة الغيب.

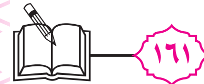
التوصيات:

١- أن تركز الدراسات البحثيّة الموضوعيّة على نصوص الوحيين؛ لاستلهام هداياتها، وترتيب دلالاتها، مع الربط الموضوعي بينها، وربطها بواقع الحياة، بعيدًا عن التنظير، أو الفذلكات الفلسفية، التي توهم القارئ وتخلط بين الحقِّ والباطل.

٢- دراسة موضوعات سور القرآن بشكل أدق، وربط تلك الموضوعات ببعضها، وتوظيف تلك الدراسات في البرامج التعليمية والتربوية والتدريبية.

٣- استخراج كنوز كتب التراث وتيسيرها للناس، وبما يتلائم مع مجريات الأمور، ووسائل الاتصال والتواصل العلمي والاجتماعي.

هذا باختصار أهم ما وصلت إليه في ما تحدثت عنه آيات سورة لقمان من موضوعات، فما كان في عملي هذا من صواب فمن الله وحده، وما كان فيه من خطأ فمني ومن الشيطان.



وأسأل الله تعالى أن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يلهمنا العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجبر تقصيرنا ويعفو عن خطأنا.

كما أسأله سبحانه أن يجزي خيرًا كل من ساعدني في هذا البحث أو أسدى إلي نصيحة، أو صحح لي معلومة، أو ساعدني على استخراجها.

كما أسأله سبحانه أن يكون هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يبارك في صوابه، وأن ينفع به كل طالب للحق وللطريق المستقيم.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الباحث/ د. محمد بن عبدالعزيز العواجي

طيبة الطيبة

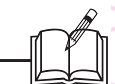


فهرس المراجع

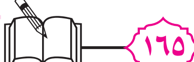
- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن - جلال الدين السيوطي - دار التراث- القاهرة- ط٣ (١٤٠٥هـ).
- الأحكام السلطانية، أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب، الماوردي، نشر دار الحديث - القاهرة.
- إحياء علوم الدين - محمد بن محمد الغزالي أبو حامد - دار المعرفة - بيروت.
- الأدب المفرد - محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي - دار البشائر الإسلامية - بيروت- ط٣ (١٤٠٩هـ)- تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة - لعز الدين على بن الأثير الجزري - دار الفكر.
- إصلاح المساجد من البدع والعوائد- علامة الشام محمد جمال الدين القاسمي- المكتب الإسلامي - بيروت- ط: الخامسة - ١٤٠٣- تحقيق: خرج أحاديثه وعلق عليه الألباني.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي - الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض- ط١ (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م).
- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث- أحمد بن الحسين البيهقي- دار الآفاق الجديدة - بيروت- ط الأولى، ١٤٠١- تحقيق: أحمد عصام الكاتب.
- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان - ابن القيم الجوزية - دار المعرفة - بيروت.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأثرهما في حفظ الأمة - عبد العزيز أحمد المسعود - دار الوطن- ط١ (١٤١٣هـ).
- البحر المحيط - محمد بن يوسف أبى حيان الأندلسي - دار الفكر - بيروت - ط٢ (١٤٠٣هـ).



- بدائع الفوائد، ابن القيم الجوزية - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي، تحقيق: هشام عبدالعزيز عطا - عادل عبدالحميد العدوي - أشرف أحمد، نشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - مكة المكرمة، ط الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- تاريخ دمشق، تأليف: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، نشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- التبيان في أقسام القرآن - محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله- دار الفكر.
- التحرير والتنوير - محمد الطاهر ابن عاشور - الدار التونسية للنشر - ط١ (١٩٨٤مـ).
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي- محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري أبو العلا- دار الكتب العلمية - بيروت.
- تفسير القرآن العظيم - إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي - تحقيق سامي بن محمد السلامة - دار طيبة للنشر والتوزيع - ط١ (١٤١٨هـ-١٩٩٧مـ).
- تفسير القرآن العظيم- ابن أبي حاتم- تحقيق / أسامة الطيب- مكتبة نزار مصطفي الباز - مكة المكرمة- ط١-١٤١٧.
- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، الفخر الرازي- محمد الرازي- دار الفكر.
- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، تأليف: سليمان بن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، تحقيق: زهير الشاويش، نشر: المكتب الاسلامي، بيروت، دمشق، ط الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - عبدالرحمن بن ناصر السعدي - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط١ (١٤١٦هـ- ١٩٩٦م).
- جامع البيان عن تفسير آي القرآن - محمد بن جرير الطبري - تحقيق د/ عبدالله بن عبدالمحسن التركي - مركز البحوث والدراسات الإسلامية - القاهرة-ط١ (١٤٢٢هـ- ٢٠٠١مـ).

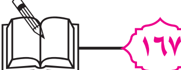


- جامع الترمذي - محمد بن عيسى الترمذي - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩م)- اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- الجامع لأحكام القرآن - محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي - دار الكتاب العربي.
- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح- شيخ الإسلام ابن تيمية- دار العاصمة للنشر والتوزيع- الرياض - ط٢-١٤١٩هـ.
- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (الداء والدواء)- محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله- دار الكتب العلمية - بيروت.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء- أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني- دار الكتاب العربي - بيروت- الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور -لجلال الدين السيوطي -تحقيق د.عبدالله التركي -مركز هجر للبحوث والدراسات الإسلامية والعربية - القاهرة - ط١ (١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣مـ).
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - محمود الألوسي البغدادي - دار الفكر - بيروت - (١٤٠٣هـ- ١٩٨٣مـ).
- رياض الصالحين- الإمام النووي- المكتب الإسلامي - بيروت- تحقيق: تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.
- زاد المعاد في هدي خير العباد - ابن القيم الجوزية - تحقيق وتعليق وتخريج شعيب الارنؤوط وعبدالقادر الارنؤوط -مؤسسة الرسالة -بيروت -ط٧(١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م).
- سلسلة أعمال القلوب - محمد المنجد - دار الضياء - القاهرة - ط١ (١٤٢٤هـ).
- سلسلة الأحاديث الصحيحة - محمد ناصر الدين الألباني- المكتب الإسلامي - بيروت - ط٤ (١٤٠٥هـ-١٩٨٥مـ).
- سنن ابن ماجة - محمد بن يزيد ابن ماجة القزويني - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩مـ)- اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- سنن أبي داود - سليمان بن الأشعث السجستاني - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩مـ)- اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.

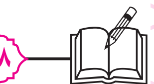


- سنن البيهقي الكبرى - أحمد بن حسين أبو بكر البيهقي - تحقيق محمد عبد القادر عطا - مكتبة دار الباز - مكة المكرمة - ط١٤١٤هـ-١٩٩٤م).
- سنن النسائي - أحمد بن شعيب النسائي - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩م)- اعتناء فريق بيت الأفكار الدولية.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة- هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي أبو القاسم- دار طيبة - الرياض، ١٤٠٢- تحقيق: د. أحمد سعد حمدان.
- شرح متن الأربعين النووية للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.
- شعب الإيمان- أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي- دار الكتب العلمية - بيروت- الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ- تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.
- صحيح ابن حبان - محمد ابن حبان التميمي البستي - تحقيق شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت - ط٢ (١٤١٤هـ-١٩٩٣م).
- صحيح الأدب المفرد - محمد بن ناصر الدين الألباني - دار الصديق للنشر والتوزيع - السعودية - الجبيل ط٢-١٤١٥هـ.
- صحيح البخاري - محمد بن إسماعيل البخاري - بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع - الرياض - (١٤١٩هـ-١٩٨٩م)- اعتناء أبو صهيب الكرمي.
- صحيح الجامع الصغير وزياداته - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).
- صحيح سنن ابن ماجة - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).
- صحيح سنن أبي داود - محمد ناصر الدين الألباني - تعليق وفهرسة زهير الشاويش - المكتب الإسلامي - بيروت - ط١ (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).

- صحيح سنن الترمذي – محمد ناصر الدين الألباني – تعليق وفهرسة زهير الشاويش – المكتب الإسلامي – بيروت – ط١ (١٤٠٨هـ–١٩٨٨مـ).
- صحيح مسلم – مسلم بن الحجاج النيسابوري – بيت الأفكار الدولية للنشر والتوزيع – الرياض – (١٤١٩هـ–١٩٨٩مـ)- اعتناء أبو صهيب الكرمي.
- صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها – محمد ناصر الدين الألباني – مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض.
- صيد الخاطر – ابن الجوزي – تحقيق: محمد محي الدين الأصفر – دار الإشراق – ط١ (١٤١١هـ).
- ضعيف الجامع الصغير وزياداته – محمد ناصر الدين الألباني – تعليق وفهرسة زهير الشاويش – المكتب الإسلامي – بيروت – ط٣ (١٤١٠هـ–١٩٩٠مـ).
- ضعيف سنن الترمذي- محمد ناصر الدين الألباني – تعليق وفهرسة زهير الشاويش – المكتب الإسلامي – بيروت – ط١ (١٤٠٨هـ–١٩٨٨مـ).
- طريق الهجرتين وباب السعادتين – محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله ابن القيم الجوزية- دار ابن القيم – الدمام – ط٢ (١٤١٤هـ)- تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين -محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله – دار الكتب العلمية – بيروت – زكريا علي يوسف.
- عون المعبود شرح سنن أبي داود- محمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب- دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الثانية، (١٤١٥هـ).
- الفتاوى الكبرى لابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، نشر: دار الكتب العلمية، ط: الأولى، ١٤٠٨هـ–١٩٨٧م.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري – أحمد بن علي بن حجر العسقلاني – ترقيم وتبويب محمد فؤاد عبدالباقي – دار الريان للتراث – القاهرة – ط١ (١٤٠٧هـ–١٩٨٦مـ).
- فتح الباري شرح صحيح البخاري- للحافظ زين الدين أبي الفرج ابن رجب الحنبلي.

- فتح القدير الجامع بين فني علم الرواية والدراية من علم التفسير- محمد بن على الشوكاني - دار الوفاء للنشر والتوزيع - المنصورة - ط١ (١٤١٥).
- فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما انزل بالمدينة -محمد بن أيوب بن يحيى ابن الضريس - تحقيق د/ مسفر الغامدي- دار حافظ للنشر والتوزيع -ط١ (١٤٠٨هـ.
- فقه الأدعية والأذكار - عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر - دار ابن عفان للنشر والتوزيع - الرياض ١٤١٩هـ.
- فقه التعامل مع الناس - عبد العزيز الفوزان - ط١- ١٤٢٤هـ.
- الفوائد - ابن القيم الجوزية - تحقيق محمد عثمان - دار الكتب العلمية -بيروت- ط٣- ١٤١٥هـ.
- فيض القدير شرح الجامع الصغير - عبد الرؤوف المناوي- المكتبة التجارية الكبرى - مصر - الطبعة الأولى، ١٣٥٦.
- قرى الضيف- عبدالله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس - أضواء السلف - الرياض- الطبعة الأولى، ١٩٩٧- تحقيق: عبدالله بن حمد المنصور.
- كتاب الآداب - فؤاد بن عبد العزيز الشلهوب - دار القاسم - الرياض - ط١ (١٤٢٣هـ).
- كتاب الزهد - الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، نشر دار الريان للتراث، ١٤٠٨هـ، القاهرة.
- لسان العرب - محمد مكرم منظور - دار الصادر - بيروت - ط١.
- لقمان الحكيم وحكمه - محمد يوسف - دار القلم.
- مجمع الزوائد - على بن أبي بكر الهيثمي- دار الريان للتراث- القاهرة-ودار الكتب العلمية-بيروت.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وتحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، نشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية - ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.
- المحرر الوجيز في الكتاب العزيز - عبدالحق بن عطية الأندلسي- مؤسسة دار العلوم- الدوحة - ط١ (١٣٩٨هـ- ١٩٧٧م).



- مختصر منهاج القاصدين- أحمد بن قدامة المقدسي-تحقيق وتخريج وتعليق محمد وهبي سليمان وعلى عبد الحميد أبو الخير -دار طيبة-الرياض ط١ (١٤١٥هـ-١٩٩٤م).

- مدارج السالكين - ابن القيم الجوزية - دار الكتاب العربي - بيروت - ط١ (١٤١٠هـ-١٩٩٠م).

- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، (تفسير النسفي) أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي، تحقيق: يوسف علي بديوي، محيي الدين ديب مستو، نشر: دار الكلم الطيب، بيروت، ط: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

- المستدرك على الصحيحين - محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري - تحقيق مصطفى عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية - بيروت - ط١ (١٤١١هـ- ١٩٩٠م).

- مصنف عبدالرزاق-أبو بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني-المكتب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثانية، (١٤٠٣هـ)-حبيب الرحمن الأعظمي.

- معارج القبول بشرح سلم الوصول-حافظ حكمي-دار ابن القيم-الدمام-ط١ (١٤١٠هـ).

- معالم أصول التربية من خلال وصايا لقمان - د/ عبدالرحمن الأنصاري.

- معالم التنزيل-الحسن بن مسعود البغوي-دار طيبة للنشر والتوزيع-الرياض-ط١ (١٤٠٩).

- المعجم الكبير - سليمان بن أحمد الطبراني - مكتبة العلوم والحكم - الموصل - ط٢- ١٤٠٤هـ.

- المغني - ابن قدامة - تحقيق د/ عبدالله بن عبدالمحسن التركي ود/ عبدالفتاح محمد الحلو- هجر للنشر والتوزيع - القاهرة - ط٢ (١٤١٢هـ- ١٩٩٢مـ).

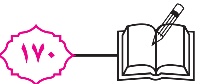
- من لطائف التفسير - أحمد فرح عقيلان - دار اليقين للنشر والتوزيع - المنصورة - ط١ (١٤١٩هـ- ١٩٩٨م).

- من موضوعات سور القرآن - سورة النور - عبد الحميد محمود طهماز - دار القلم دمشق - الدار الشامية بيروت -ط١ (١٤١٢هـ-١٩٩٢مـ).

- من موضوعات سور القرآن - سورة لقمان - عبد الحميد محمود طهماز - دار القلم دمشق - الدار الشامية بيروت -ط١ (١٤١٢هـ-١٩٩٢مـ).

- منهاج السنة – ابن تيمية – جامعة الإمام محمد بن سعود – تحقيق محمد رشاد سالم.
- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج- أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي- دار إحياء التراث العربي – بيروت – الطبعة الثانية، (١٣٩٢هـ).
- منهج ابن تيمية في الدعوة – د. عبدالله بن رشيد الحوشاني-دار اشبيليا – الرياض- ط١ (١٤١٧هـ).
- موسوعة الآداب الإسلامية المرتبة على الحروف الهجائية – عبد العزيز فتحي السيد ندا – دار طيبة للنشر والتوزيع – الرياض – ط١ (١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م).
- الموسوعة الحديثية – مسند الإمام أحمد – مؤسسة الرسالة – بيروت – ط١ (١٤١٨هـ- ١٩٩٧م)- بإشراف المحقق الشيخ شعيب الأرنؤوط.
- الناسخ والمنسوخ في كتاب الله ﷻ واختلاف العلماء في ذلك – أحمد بن محمد النحاس – تحقيق ودراسة د/ سليمان بن إبراهيم اللاحم – مؤسسة الرسالة – ط١ (١٤١٢هـ- ١٩٩١م).
- نضرة النعيم في مكارم وأخلاق الرسول الكريم – إعداد مجموعة من المتخصصين- دار الوسيلة – جدة- ط١ (١٤١٨هـ).
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور – بهاء الدين إبراهيم بن عمر البقاعي – دار الكتاب الإسلامي – القاهرة – ط٢ (١٤١٣هـ).
- النهاية في غريب الحديث – ابن الأثير – تحقيق طاهر احمد الزاوي ومحمود محمد الطانحي- المكتبة العلمية – بيروت.
- نونية القحطاني- أبي محمد عبدالله بن محمد الأندلسي-مكتبة السوادي للتوزيع- جدة- الطبعة الثالثة، ١٩٩٥ – تحقيق: محمد بن أحمد سيد أحمد.
- الوابل الصيب من الكلم الطيب – محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبدالله – دار الكتاب العربي – بيروت- ط١ (١٤٠٥هـ)- تحقيق: محمد عبدالرحمن عوض.





فهرس الموضوعات

